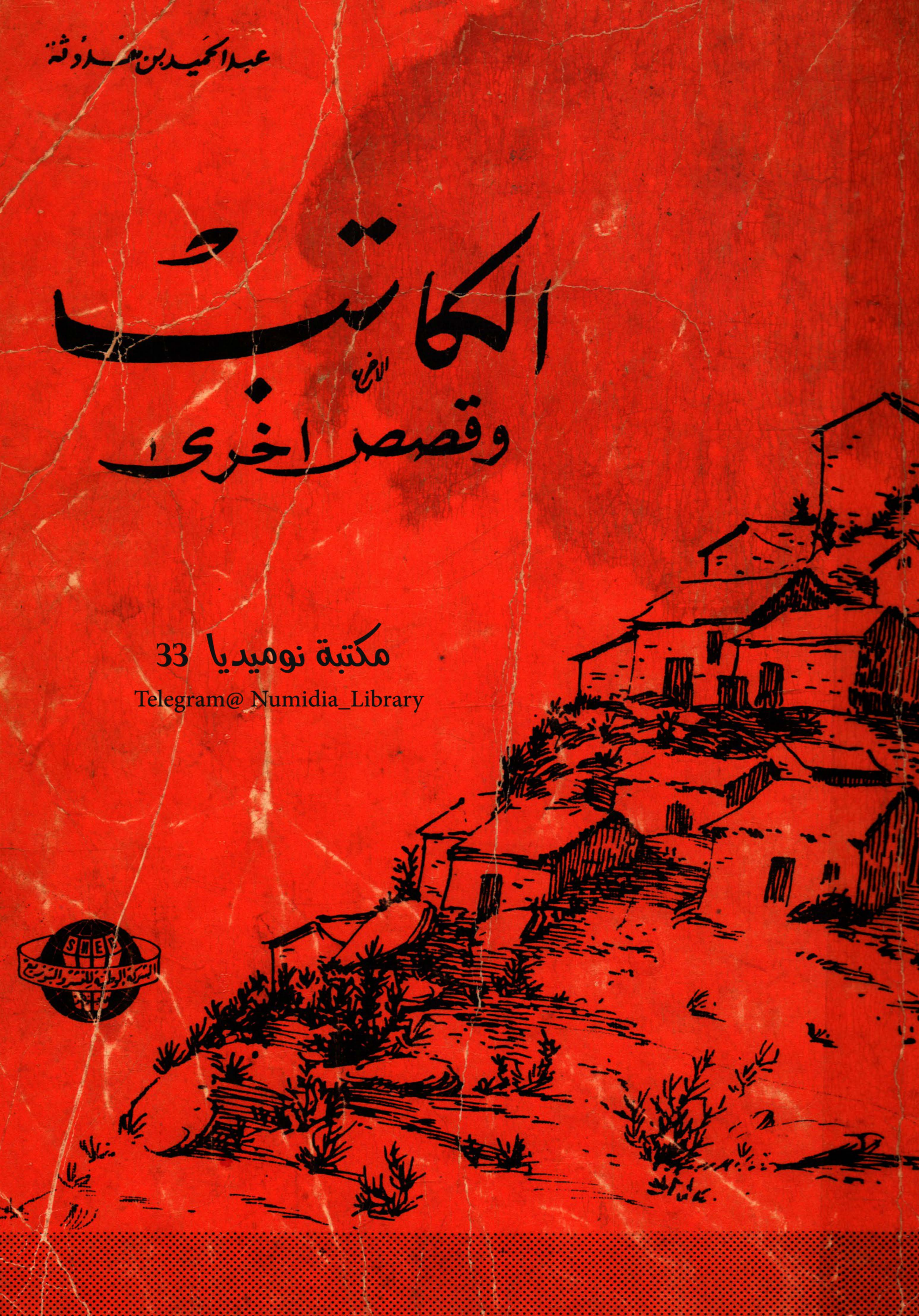
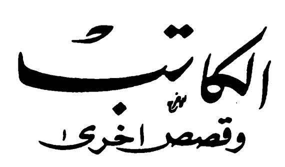
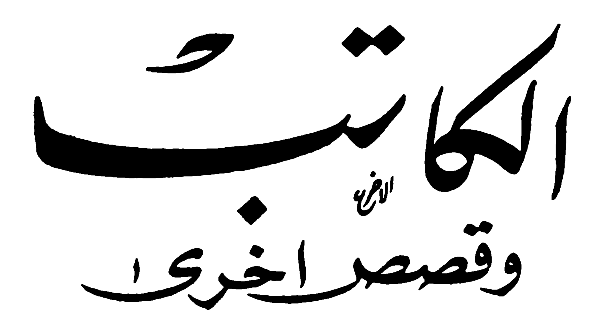

عبد الحميد بن هدوقة
الكاتب
وقصص اخرى
SNED
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر


الكاتب
وقصص اخرى

عبد الحميد بن هدوقة




طبعة ثالثة منقحة

# الكاتبُ

كنت فى أحد الشوارع الرئيسية بتونس ماشياً. كان الشارع غاصاً بالمارة ولـكني كنت وحدي ، لم يمض على انتقالي إلى العاصمة التونسية إلا أيام قلائل. فى السابق كنت مقيماً بأحد مخيمات اللاجئين القريبة من الحدود.

كان الشارع يبدو لي نظيفاً جميلا رغم الذباب والحر ، زادته واجهـات الدكاكين المـكتضة بالمعروضات الثمينـة، من ملابس وأحذية ومجوهرات أوربية، جمالا وزينـة.

وكانت الحـكومة التونسية حينئذ ما تزال لم تصدر القوانين المتعلقة بمنع استيراد البضائع الأجنبية أو التضييق عليهـا. كانت معظم المعروضات من النوع الراقى (لوكس)... وكنت أسير فى الشارع بأسمالي البالية، فارغ اليدين فارغ البطن. كان الجوع يعصر أمعائي عصرا ووصلت إلى مـكان به مخبزة، لعلها هى الوحيدة فى ذلك الشارع. ووقفت بدون أن أشعر أمام الواجهـة التى كان لها رفان ، رف أعلى للخبز وأسفـل للحلويات. ورحت أنظر إلى

الخبز نظر المتيّم به، وكانت رائحته تصل إلى أنفي جيدة طيبة فتزيد من جوعي أضعافاً لم أكن أملك مليماً واحدا. طبعاً كان بإمكاني أن اتصل بأحد الإخوة الجزائريين وأقترض منه بعض الدنانير، ولكن لم أستطع. كان الحياء يمنعني، ثم كان لي أمل في الحصول على الدنانير من جهة أخرى، من الناشر.

وبقيت أنظر إلى الخبز، ونقلني الخيال إلى حقل من حقولنا بالجزائر، قبل أن تصيرها القنابل أراضي قمرية تملأ ها الفوهات... وبدا لي الخبز سنابل قمح، أجفانها السوداء تلمع بالأشعة التى صبتها عليها الشمس.

ورأيت السنابل في مشهد نفسي عابر تصير حصيدا ثم حباً ثم دقيقاً. ورأيت أمي بصدد عجن الخبز... آه، كم كانت أمي تحسن عجن الخبز وإنضاجه! كان خبزها مدورا طبيعياً مثل الخبز الذي تصنعه النحل. وكان لذيذا... ورأيت القنبلة تسقط على دارنا حيث أمي وأبي وإخواني فتحطم كل شيء، وتحرق كل شيء حتى الخبز... وانتهى المشهد في نفسي على صوت اقتحم أذني:

– ماذا تعمل هنا؟ أتريد أن تكتب قصة عن تصفيف الخبز في الواجهات؟

فالتفت بدهشة وإذا بي أرى أمامي صديقاً قديماً وزميلا أيام الدراسة، صار ضابطاً في جيش التحرير... وتبادلنا التحية. ولم أرد جواباً عن سؤاله، فلم يكن الجواب يعجزني، إذ بمجرد سماع سؤاله كدت أقول: «وهل هناك قصة أجمل من قصة الخبز». ولكني لم أجبه حياء. كنت هكذا دائماً، يمنعني الحياء فلا أعبّر عن ذات نفسي في الغالب إلا بما يناقضها.

دعاني الصديق أن ندخل إلى المخبزة لتناول بعض الحلويات فرفضت فأقسم أن يكون ما قال ، فدخلنا وأخذنا حبتين من الحلواء الملففة... ولو لم يمنعني الحياء لأخذت خبزة بدل الحلواء ، ولأكلتها كما تؤكل الحلواء، بنفس الطريقة وبنفس التلذذ، ولكن...

ثم خرجنا من المخبزة وسألني الصديق:

– ماذا تعمل؟

– لا شيء.

– وإلى أين أنت ذاهب الآن؟

– لست أدري، كنت أفكّر في الذهاب إلى دار النشر ولكنك أتيت...

– هل مجيئي يعوقك عن ذلك؟

– لا، ولكن الأمر ليس مستعجلا.

– هل تريد نشر قصص جديدة؟

– ربما.

ومشينا قليلا ثم عرض علي الصديق أن نجلس بمقهى كان أمامنا لتناول قهوة فجلسنا.

واستأنف أسئلته قائلا:

– كم مضى عليك هنا؟

– حوالي أسبوعين.

– أين تسكن؟

– لدى أحد الأصدقاء في ضاحية «لافييت».

– والعمل، هل فكرت في عمل؟

– فكرت وأفكر...

– ألم تتصل بالقاعدة لإيجاد عمل لك ؟
– اتصلت ولكن لا شيء فى الظرف الراهن .

وجاء القهواجي فطلب كل منا ما أراد، ثم استأنف صديقي قائلا :

– يجب أن تجد لك عملا مهما كان الحال، ولو فى جهنم!
فضحكت من تعبيره وقلت:
– لكن جهنم تركناها وراء الحدود يا صديقي.
فكرر قائلا بجد:
– يجب أن تجد لك عملا. إن الحرب مازالت طائلة.
– لو كان الأمر بيدي لفكرت في شيء آخر غير العمل هنا...
فأدرك صديقي ما أعني وقال :
– لا تستطيع ذلك. صحتك هذه ونحافتك لا تسمح لك بقضاء أسبوع واحد فى الجبل.

وساد الصمت بيننا لحظات، ثم بحث في أحد جيوبه وأخرج أوراقاً مالية تونسية وناولني منها ورقتين من ذوات العشرة دنانير وقال
– لا بد أن تجد لك عملا. سأسأل أنا من جهتي بعض من أعرفهم بخصوص إيجاد عمل لك. فرفضت منه قبول الدنانير التي ناولني إياها ، ولكن رفضي بالنسبة إليه كان عبثاً من العبث. إن صديقي عسكري السلوك والإرادة والتفكير. وقال لي غاضباً:
– الناس يموتون بالرصاص أما أنت فتموت حياء...

وافترقنا بعد الإتفاق على موعد نتلاقى فيه ، ليخبرني فيما

إذا وجد لي عملا. وذهبت أنا إلى دار النشر أحمل قصصي الجديده.

الناشر لطيف جدا، باسم الوجه باستمرار. لم تمنعه أسمالي البالية أن يعرض عليّ الجلوس في أوفر مقعد بمكتبه. إننا معشر الجزائريين لا يمكننا أن نصل إلى ما يتحلّى به إخواننا الشرقيون من لطافة مهما حاولنا ذلك. إن طبعنا وطبائعنا غير قابلة للين بالسهولة التي تقبله بها طبائع المشارقة. نحن جدّيون أكثر من اللازم وهم لينون أكثر من اللازم أيضاً. نحن لا نبتسم بدون سبب وهم لا يحبون أن تكون البسمة مرتبطة بأي سبب. فالبسمة عندهم ككلمة «السلام عليكم» في بوادينا، لا يترتب عنها أي شيء.

جلست في المقعد الذي قدم إلي شاكرا، ونادى الناشر على البواب: «يا حمادي، يا حمادي...» فدخل البواب فقال له:

– قهوة من فضلك.

والتفت إلي سائلا:

– تشرب قهوة أليس كذلك؟ أم تريد مشروباً بار دا؟

فقلت:

– لا بأس، قهوة.

خرج البواب لما كلف به، واتجه الناشر إلي والبسمة لا تفارق شفتيه وقال:

– إن قصصك جميلة جدا، هل ما زلت تكتب القصص؟

لاحظت أن لطافة السيد الناشر وأدبه الجمّ لم يصلا به إلى التخلي عن مقعده بالمكتب والجلوس إلى جانبي. ولو لا ابتلائي

بالملاحظة لما أدركت الفارق الموجود بين مقعده العالي ومقعدي المنخفض...

وأجبته:

– إن أعجبت بقصصي وأنت الناشر فلي الحق أن أتفاءل.

فقال بلباقة لا تخلو من تكلّف:

– التفاؤل أساس النجاح، لا بد من التفاؤل...

وواصل قائلا:

– إن قصصك جميلة لا شك في ذلك، لكن لى ملاحظة بسيطة إذا سمحت...

– تفضل.

– أقصد أن معظم مواضيع قصصك تتعلق باللاجئين... صحيح، إن ما يعانيه أشقاؤنا فى حياة اللجوء يجعل كل مثقف منا يعمل ما في وسعه للتخفيف مما يلاقونه، ولكن أنت كقصاص يجب أن تفكر في قرائك قبل إخوانك... أعني في ميدان القصة طبعاً.

أعدت في نفسي بتألم قوله: «يجب أن تفكر في قرائك قبل إخوانك...» أفكّر في قرائي قبل إخواني! إذا لم يحس إخواني الأحرار ما يحسّه إخوانى اللاجئون فلم الكتابة إذن؟ لمن أكتب؟ هل الكاتب ممثل مسرحي أو مهرج «سرك»، مهمته تسلية القراء والترويح عن نفوسهم؟ لا، أبدا... هذا لن يكون، لن أمثل أدوارا لا تهمني، ولن أضحك قرائي على حساب إخوانى... آه، ما أبعد ما يحسّه الكاتب عما يريده الناشر!

إنني أمامه لست إنساناً وإنما وسيلة لإنتاج هو فى حاجة إليه. إن مأساة الكاتب هي أن يكون الناشر تاجرا...

فضّلت السكوت والحديث إلى نفسي عن إجابته. وساد الصمت بيننا لحظات ثم دخل حمادي حاملا القهوة فناول الناشر فنجاناً ثم ناولني الآخر وانصرف.

واستطرد صاحبي قائلا وقد رفع الفنجان إلى شفتيه:

– قل ياسي... هل أنت تسكن هنا بتونس؟

– الآن نعم.

– لا شك أنك تعمل بمصالح الأخبار للثورة؟

– لا.

فتعجب من جوابي بالنفي، وأخذ ينظر إلي بدهشة، وقال؟

– وأين تعمل إذن؟

– أكتب القصص.

فبلع ريقه في تحرّج:

– كتابة القصص شيء هام لا شك في ذلك ، ولكن ...

– انتظرت أن يتم جملته ولكنه توقف عن الكلام ، فقلت ؟ :

– ولكن ماذا ؟

فقال فى حرج بيّن:

– ظننت أنك تعمل بمصالح الثورة ليس إلا.

فقلت بابتسام:

– لا أعمل بأي مصلحة من مصالح الثورة. إننى إن شئت الحقيقة عبء على الثورة .

فقال مستنكرا فى أدب :

ـ معاذ الله، مثلك لا يمكن أن يكون عبئاً على الثورة وإنما عضو نشيط فيها.

فقلت مؤكدا:

ـ ما قلته لك هو الحقيقة. إن مهنتي الحالية لاجيء أكتب القصص

فقال مستنكرا بنفس الأدب:

ـ حاشاك، إن اللجوء ليس مهنة، كما ان كتابة القصص في مجتمعنا ليست مهنة أيضاً.

واستطرد سائلا إياي عن زيارتي:

ـ إنني على كل حال مسرور بزيارتك هذه، والتعرف عليك شخصياً، وإنني تحت خدمتك.

فقلت مختصرا:

ـ جئت لأمرين: أولا ما إذا كان لي عندكم بقية حساب عن مجموعة القصص الأخيرة، ثانياً لعرض مجموعة جديدة عليكم.

كلّم هاتفياً مساعده المكلف بالحسابات، لينظر ما إذا كان هناك شيء لي، وخاطبني قائلا:

ـ لا أظن أن هناك شيئاً ذا بال. أنت تعرف أن الكتب المحلية لا يقبل عليها القراء. أما بخصوص المجموعة الجديده فدارنا كعادتها مستعدة لكل تضحية في المساهمة من أجل نشر إنتاج مغربنا العربي والتعريف به.

أثارت في نفسي اشمئزازا كلمة «التضحية»... من الذي يضحّي، هل الكاتب أم الناشر؟

وقلت بابتسام:

ـ كنت أظن أن الكاتب وحده الذي يضحي، وها أنت ذا تتحدث عن تضحية الناشر!

فأجابني بلهجة مفرطة في الجد:

– نعم، ذلك هو الواقع، إننا كلما ننشر كتاباً لادبائنا نقدم على تضحية.. تضحية حقيقية. إننا في كثير من الأحيان لا نسدد ثمن الطبع إلا بعسر.

فقلت له:

– تأكد أنني لا أحب أن أكون سبباً في خسارة أحد. إن رأيت فعلا أنَّ نشرك لمجموعة قصصي قد لا يسدد نفقات الطبع فالأحسن أن لا أنشرها.

فقال مؤكدا:

– قلت لك اننا نضحي فعلا، ولكنها تضحية مرغوب فيها، لأننا نريد بعث حركة أدبية في مغربنا العربي مهما كان الثمن. هل معك المجموعة الجديدة؟

– ما سمعته منك يجعلني أفضل أن لا أقدمها للنشر، على الأقل في الظرف الراهن.

– لا، هذا لا يكون. يجب أن ننشرها مهما كلفنا ذلك.

– إذا كان الكاتب يضحي إذ يكتب، والناشر يضحي إذ ينشر، والقارىء يضحي إذ يقرأ، فالأحسن أن يحذف من حياة الناس ما يسمى بالثقافة.

فقال الناشر مؤكدا:

– نعم يا سيدي، يجب أن يضحي الكاتب والناشر والقارىء إذا أردنا أن نبني مستقبلا للأدب والثقافة في هذا المغرب. ثم إنه مهما كان الأمر فإن هذه التضحيات سننال عنها مقابلا: هو اغتباطنا بأداء الواجب.

فقلت ضاحكاً:

– يستطيع أن يضحي الكاتب إذا توفر لديه خبز، أما أن يعيش على الطواء فذلك غير ممكن.

فأجاب مصدقاً:

– صحيح يجب أن يتوفر الخبز للكاتب، ولكن لا من مهنة الكتابة. إنك إذا فكرت أن تكسب قوتك من الكتابة فأنت واهم، على الأقل فى الظروف الراهنة. ربما في المستقبل يستطيع الكاتب عندنا أن يعيش من قلمه...

فقلت له ساخرا:

– لا يمكن أن يكون للأدب مستقبل أو رواج بدون أن يكتب الكاتب ... لكن كيف يمكن أن يكتب الكاتب إذا كانت مهنة الكتابة لا تضمن له العيش؟

فأجاب متأسفاً:

– صحيح، في الواقع المشكل مطروح سواء بالنسبة للكاتب أو الناشر، ولكن تضحية الجانبين هي بداية حله.

واستطرد سائلا:

– ما هو عنوان مجموعتك الجديدة؟

– المخيم رقم أربعين.

– مع اللاجئين دائماً!

– وعمّاذا تريد أن يكتب اللاجيء؟

– فرفع يديه وفتح ذراعيه مشيرا إلى الفضاء الواسع قائلا:

– لست أدري، إن حياة اللجوء ليست أبدية. كان من حقك ككاتب أن تكتب في آلاف المواضيع الأخرى، كفرحة الحياة، نعمة الحرية، المستقبل... إلخ...

وأثناء حديثه دخل مساعده القائم بالحسابات فقال:

– لا شيء عندنا للسيد...

ثم قال وهو يناولني رسالة:

– جاءت هذه الرسالة باسمكم منذ مدة، ولحسن الحظ أن قسم البريد عندنا احتفظ بها.

فأخذت الرسالة متعجباً وقلت:

– رسالة باسمي أنا؟ لم أتخذ مقرّ دار النشر عنواناً لي. لست أدري كيف جاءت هذه الرسالة إلى هنا؟

فقال رجل الحسابات:

– لا شك أن أحدا من معارفكم لم يعرف عنوانكم فوجه الرسالة إلى هنا.

فكّرت أن أفتح الرسالة لأرى من المرسل، وماذا يقول في رسالته، ولكني عدلت عن ذلك وفضلت أن أنهي أولا زيارتي، وقلت للناشر:

– أستأذنكم الانصراف وأشكركم على حسن مقابلتكم هذه.

فقال فى أدب متكلف:

– لم نعمل شيئاً يستحق الشكر. أنتم أولى به لتفضلكم بهذه الزيارة التى مكنتنا من التعرّف عليكم فعلى الرحب والسعة في كل وقت.

فقمت معتزماً الانصراف، وإذ رآني الناشر لم أقدم له مجموعة القصص قال

– ومجموعة القصص يا أستاذ، يجب أن ننشرها بما أنها جاهزة للنشر.

فقلت:

ـ الأحسن أن نؤخّر ذلك إلى فرصة أخرى.

حاول أن يلح عليّ ولكني كنت قررت أن لا أنشر منذ اليوم قصة، وأن أوجّه حياتي في اتجاه، آخر...

وخرجت، وأمام شجرة بالشارع توقفت وفتحت الرسالة فقرأت فيها ما يلي:

«الآن الساعة الثانية ليلا. الفجر قريب ولكن الظلمة ما تزال جاثمة.

من نافذة حجرتي الصغيرة أرى نجماً بعيدا هو أجمل في نظري ما بثّ في هذا الكون الكبير من نجوم. لا شك أنكم معشر اللاجئين تحبون النجوم مثلنا نحن الفتيات؟ قرأت في كتاب أن هناك نجوماً سكنتها مخلوقات عاقلة متقدمة على رجلنا العصري بملايين السنين! وأكاد أصدق ذلك، لأن الحروب التي تلتهم أرضنا الصغيرة الهائمة في هذا الكون خير دليل على هذا الرأي. أليس كذلك؟

فرغت منذ لحظات من قراءة مجموعة قصصك... إن حبّي لأبطالها اللاجئين يفوق إعجابي بأبطالها المحاربين! عفوا يا سيدي، لا أقصد إدانة حربكم فهي مقدّسة لأنها بذرة الحرية. كل ما في الأمر أن ما قرأته عن حربكم، لا أجد له شبها في حياتي الصغيرة، بيد أني في قصص اللاجئين أجد نفسي، وأتخيلني أحياناً لاجئة كأولئك الذين تتحدث عنهم قصصك.

إن لاجىء قصصك لا يبكون، فالدموع تنضب من أعينهم

دائماً قبل أن يصلوا إلى الخلود! وكذلك الأبطال فهم يستشهدون والحرب لم تنته بعد!

إن طريقتك هذه في تصوير البطولة تدعو إلى الحيرة! إنك ترى في الموت لأبطالك كمالا، كأن الحياة شيء قذر يشوّه سمعة الأبطال؟

نقط كثيرة تدعو إلى الحيرة والإعجاب معاً لا أذكرها لك الآن... فموضوع هذه الرسالة هو أنت لا قصصك.

إنني أراك وأرى حلماً حيّا في عينيك.

إنني أعرفك ولم أرك بعد.

إنني أعرفك حتى لأحس أحياناً انك تنبض في شرايين فؤادي.

حاولت مرارا أن أشخصك لحواسي فرسمت لك صورة وصورة وأخرى ... فتراكمت الصور بين يدي، لكن عيني تبحث عنك أبدا في سدم أخرى حيث الإدراك يستحيل.

فأين أنت. ؟

ومـن أنت؟

أعرف أنك تكتب القصص، لكن مهنتك ما هي؟ عيشك مماذا؟

إن حساسيتك في تصوير الجوع تملؤني سخطاً على الذين يأكلون بالطرقات وفي ردهات المطاعم،خشية أن تكون أحد أولئك الجائعين الذين تتحدث عنهم قصصك... وأشفق أن تطوق خيالك أدخنة المطاعم التي تخنق مدننا فتخلق لنا أبطالا مثلهم الأعلى قتل وأكل.

أكتب لك هذه الرسالة على ضوء مصباح كهربائي صغير قرب السرير، حيث أجلس الآن وحيث أنام. إن الكتابة على السرير شيء مرهق، والكتابة إليك أمر مريح، وفي راحتي وإرهاقي أبحث عن كلمة تصور ذلك النجم الذي أراه يَشعُ في فضاء بعيد لا تصل إليه حواسي، والذي أراه في نفسي قريباً قريباً، والذي أتخيله أحياناً في نظراتك ... نظراتك التي يدركها شعوري ولا تدركها الحواس.

إن الفجر قريب، وعما قريب سيختفي نجمي، وستنتهي خلوتي معك، وتزول هذه الأحلام العذبة من رأسي...

أما هذه الرسالة فسأُرسلها إلى الدار التى نُشرت قصصك. متى تصلك ؟ وهل تصلك ؟ لست أدري.

إنْ قُدِر لها الوُصول إليك، تأكد من شيء واحد هو انني في كل ليلة أعيد قراءة إحدى قصصك.

أما عنواني فهو هذا...تونس.»

ما كدت أفرغ من قراءة الرسالة حتى أحسست الدموع تملأ عيني. لم أستطع أن أواصل طريقي، ولبثت وقتاً أمام الشجرة حائرا متسائلا: «هل أُواصل طريقي أم أعود إلى دار النشر، هل قراري بعدم نشر قصصي يعطي فعلا لحياتي اتجاها جديدا، أم هو محض أنانية؟» كنت قررت أن أحرق هذه القصص الجديدة ، وها أنذا
الآن أتردد: هل هذه القصص ملك لي؟

وَشَعرتُ أنها لم تعد ملكاً لي، وأن عدم نشرها تَعدٍّ على حقوق غيري، أُولئك الأصدقاء الذين لا أعرفهم والذين قرأوا

قصصي القـديمـة... أولئك القراء من الاخوة والأخوات الذين آنستهم قصصي أو آلمتهم، والذين أحبّوها وأحبّوني من خلالها. أليس أقل واجب علي هو أن أبادلهم حبهم بالمثـل؟

ورجعت إلى دار النشر، ودخلت إلى مـكتب الناشر مطأطئا رأسي وآثار الدموع ما تزال على مآقي وقلت له في تلعثم:

ـ عفوا، لقد عدلت عن رأيي السابق، وعدت إليك بالمجموعة الجديدة لنشرها. أرجوك أن تنشرها في أقرب مدة ممكنة. أما العنوان فهو «الأصدقاء المجهولون» بدل المخيّم رقم عشرين.

وشعرت بالدموع تملأ مرة أخرى عيني، فوضعت مجموعة القصص على المـكتب أمامه وخرجت مستعجلا، فلم تـكن الـكلمات حينئذ سهلة الخروج من حلقي، ولم أرد أن يرى الناشر دموعي.

ومن ذلك الحين أدركت أن فكرة الهروب من الـكتـابة سيـكون موضوعاً لآخر قصة في حياتـي.

الجزائر في 15 جانفـي 1971

# الرّجل المزرعَة

لا أحسن القراءة ، صغيرا كنت أرعى البقر، وشاباً أفلّح الأرض . حياة صغيرة فى أفق صغير. من القرية إلى المرعى أو الحقل ليست هناك مسافة إنما هى مساحة لرقعة من الأرض يملـكها ألم . «ليونارد» وبها القرية والمزرعة والمرعى والعمال والحيوانات . في الواقع كنا جميعاً بشر وحيوانات وتراب نشـكل في نظر الم . (ليونارد) « المزرعة »!

عرفت ذلك في إحدى الليالي : كانت زوجة عمـي أحمد، جارنا في حالة وضع، وكانت صحتها سيئة . ذهبنا لرؤيتها كلّنا: أنا، أبي، أمي وإخواتي الصغار . وخشي عمي أحمد أن لا يستطيع القيام بعمله في المزرعة من الغـد وترك زوجته النفساء وحدها ، فأمرني بإخبار الم. (ليونارد) بذلك ،

كانت الساعة حوالي العاشرة ، لم يـكن الم. (ليونارد) متزوجا

كان يعيش وحده. طرقت الباب ودخلت: هكذا نفعل جميعاً، لا ننتظر الإذن بالدخول.

وشاهدت أول ما شاهدت رِجْلَيْن فوق المنضدة بينهما زجاجة خمر! واقتربت فرأيت جثة ملقاة في مقعد عريض، القبعة تغطي نصف الوجه؟ وسألني مستنكرا:

– كيف لم تنم إلى الآن؟ والبقر غدا ؟

– لم ننم بسبب الوضع، ذهبنا...

لم يدعني أتمّ الجملة وقال في شيء من السرور والمفاجأة وقد استوى جالساً:

– أتلد الليلة؟

– نعم،

– أبوك عندها الآن ؟

– كلّنا ذهبنا .

ووقف قائلا:

– سأذهب أنا أيضاً. تعال أحمل هذا...

وأشار إلى غطاء من قطن في خزانة قديمة بلا باب : ثم التفت إلي سائلا:

– ذكر أم أنثى ؟

– لم تلد بعد،

– آ... لم تلد بعد، كيف هي الآن؟

– لم أرها.

فاستفهم بحدّة قائلا :

– كيف لم ترها؟ ألم تقل انكم جميعاً هناك؟

– أمي فقط هي التي بحجرتها أما نحن بالحجرة الأخرى.
– أي حجرة؟
حجرة الرجال.

كان حوارنا يجري في اتجاهين يبتعدان عن بعضهما أكثر فأكثر. والحق أني استغربت اهتمامه بوضع زوجة عمي أحمد استغراباً كلياً. كما أن أجوبتي له بالرغم من بساطتها ووضوحها بدت له غامضة محيّرة. وقال سائلا إياي كمن خطر بباله خاطر جديد:

– لكن من التي ستلد الليلة؟ أليست البقرة؟
فأجبت بابتسام ولم أتمالك من الدهشة:
– لا. زوجة عمي أحمد هي التي في حالة وضع.

عاد إلى مقعده وغاص في لجّة من الضحك. لم يكن يسمع ضحكه، كان بطنه فقط يهتز. وكان كذلك عندما يضحك.

واستأنفت قائلا:
– جئت لأخبرك... عمي أحمد هو الذي أرسلني...
– ماذا يريد لبقرته، الزيت أم الدقيق؟
– خشي أن لا يستطيع الذهاب إلى عمله غدا. لأن حالة زوجه سيّئة جدا.

فأجاب بلهجة تنمّ عن غضب:
– أنا في حاجة إلى رجال عمال لا إلى أطفال رضّع.
وقام فخطى خطوات ثم قال وهو ينظر نحو الباب:
– لكن غدا سأضع قانوناً يحدد الولادات في المزرعة وإلا فسوف يكون عدد الاطفال فيها أكثر من عدد الدجاج.

ثم خطى خطوات أخرى فى القاعة بقوة كأنه يحاول بذلك إثبات ملكيته لها، وعاد إلى المنضدة حيث زجاجة الخمر فملأ الكأس التى بجانبها وشربها في جرعة واحدة. ثم نظر إليّ وفتح ذراعيه وقال:

ـ إن عمك أحمد هذا لا يعرف من الأعمال غير ما ينتج الأطفال. أنا كلي ليس لى ولد واحد، وهو في كل سنة يأخذ من المزرعة مكاناً لمولود جديد!

كنت صغيرا لا أفكر كثيرا فيما أسمع ولا فيما أقول. ورجع الم. (ليونارد) إلى مقعده فأخذ الزجاجة من جديد وأفرغ ما بقي من الخمر فى الكأس وقال:

ـ أنا المسؤول الوحيد على المزرعة، على الأطفال والدجاج، على النساء والبقر، على الرجال والبغال، على المزرعة. كل ذلك المزرعة انصرف الآن.

* * *

فى الواقع كنا جميعاً بشر وحيوانات وتراب نشكل «المزرعة» وكانت المزرعة هى الم. (ليونارد) كان يقول ذلك بعبارات مختلفة. ونحن الصغار لم نكن نشعر أبدا بفرق بين الم. (ليونارد) والمزرعة. كنا نراه من خلال المزرعة ونراها من خلال قبعته العريضة.

أنا، أولاد الجيران، أبي، آباؤهم، الحيوانات...
كان الم. (ليونارد) يفكر في حياتنا، فيما نأكل ونشرب ونعمل. ونحن لا نفكر في شيء، ننتظر رجوعه عندما يسافر، وننتظر يقظته عندما ينام، وننتظر صحوه عندما يسكر، وننتظر أمره

لتنفيذ ما أحب. كان يحيا وكنا ننتظر ...

السنون التي مضت أثرت على سكان المزرعة وعلى المزرعة نفسها، كبر أطفال، وشاب رجال، ومات آخرون، وشرفت حيوانات وأشجار وانقرضت أخرى، ونمت أشجار جديدة وحيوانات صغيرة، لكن شيئين لم يتغيرا: التراب والم. (ليونارد) بقي التراب كما كان، وبقي الم. (ليونارد) بقبعته وسكره وعزوبته كما كان أيضاً. لم يمت ولم يشب، لو تؤثر عليه الفصول ولا السنون. هكذا كنا نراه على كل حال وهكذا كنا نفكر فيه نحن سكان المزرعة!

والغريب أننا لم نشعر في يوم من الأيام أن الم. (ليونارد) ما هو إلا رجل كبقية الرجال! لكن لو شعرنا بذلك لثرنا عليه قبل الثورة... ا

كنا نعتقد بصورة تلقائية أن الرجل الذي يشبه الرجال هو الذي يحرث الأرض أو يرعى الأغنام والبقر أو يعنى بالغلال والشجر، ذاك النحيف الأسمر الأصفر الذي أعطته الأرض من صورتها لوجهه صورة...

والم. (ليونارد) لا يتّسم بأي لون من هذه الألوان. كان أحمر أزعر ضخم الجسم والبطن، لم تعطه الأرض من صورتها لوجهه صورة. بل هو الذي يحاول أن يعطيها من نفسه صورة. لذلك لم نشعر في يوم من الأيام أنه قد يكون مثلنا: يخاف أو يتألم، يجوع أو يعطش يمرض أو يصح... لم نبدأ ندرك أنه رجل يمكن أن يخاف ويمكن أن يموت حتى جاءت الثورة،

حينئذ تغير كل شيء، حتى الم. (ليونارد)، تغيّر في لونه وفي هيأته، تغير في سلوكه معنا: صار أقرب إلينا حينئذ منه إلينا في الماضي. أدركنا ذلك عندما جمعنا لأول مرة وخطب فينا قائـلا:

ـ «لأول مرة»، ولآخر مرة أيضاً، أحدثـكم كمسؤول عن مصيركم وعن المزرعة. نحن هنا فى المزرعة سواء. نحن المزرعة وهى نحن. فبدوننا لا تبقى هنا مزرعة وإنما تراب، وبدون المزرعة لانبقى نحن. كل منا له عمله وله حياته وعليه واجبه. وعملي أنا أنا وحياتي وواجبي هي التفـكير فيـكم جميعاً، لأنـكم عندي جزء من المزرعة. لا أعتبر نفسى وحيدا لأنـكم جميعاً لي. إذا كان هناك بينـكم من يستطيع تسيير المزرعة فأنا مستعد من الآن لوضع أمرها بين يديه، وتعويضه فيما كان يقوم به من عمل. ولـكني أعرف أنـكم لا تستطيعون. وإذن فإن رأيتم أن يبقى كل منـكم فى عمله، يدافع عن هذه المزرعة دفاعه عن حياته، فأنا أضمن لكم ما تحبون. وإن كان بينـكم من يفضل الالتحاق «بالفـلاقة» فلينصرف من الآن لـكن عليه أن يفـكر من الآن فى مصير عائلتـه وفى مقر جديد لها. المزرعة لا ترضى أن يعيش فيها «الفـلاقة» والفلاحة! اختـاروا.

لم يجب أحد من الحاضرين ولم ينبس بـكلمة. وانتهى الاجتماع الذي عقـده الم. (ليونارد) لأول مـرة.

لم نفهم حينئذ ما كان يرمي إليه فى خطابه. لـكن العجب بلغ مبلغه من الحاضرين حين قال الم. (ليونارد) إنه مثل سائر عمال المزرعة! أما أنا فحاولت أن أتخيل نفسي مثل الم. (ليونارد) بيد أني

لم أصل إلى نتيجة. إذ كيف يمكن لجسمي النحيف أن يضخم ويماثل جسمه ومن أين لرأسي أن يصير في مثل حجم رأسه! ثم القبعة... هل يمكن أن ألبس قبعة؟ لا، إن المقارنة بيننا لا تصح، وصورة المماثلة لن يحصل عليها خيالي. فالم. (ليونارد) وأنا لا يمكن أن نتلاقى في صورة مهما كان الحال.

* * *

لو فكر الم. (ليونارد) لحظة واحدة أن الرجل مهما كان مستواه العقلي لا بد أن يشعر ولو مرة في حياته بوضعه الاجتماعي كإنسان، لما فكر أبدا في جمع العمال وإلقاء خطابه، ولكن السيطرة المطلقة التي باشرها سنين طويلة على المزرعة ومن فيها جعله يتخيل أن العمال ما هم إلا جزء مادي من أجزاء المزرعة. وهكذا كان خطابه بمثابة منبّه فشعر العمال فجأة بوضعيتهم وأدركوا أنهم إن سكنوا المزرعة وعملوا بها طول حياتهم فهم مع ذلك ينتمون إلى وطن تتجاوز حدوده حدود المزرعة... وكثرت التعاليق والتساؤلات بين الفلاحين في تلك العشية فقال أحدهم:

– نداقع عن المزرعة، ضد من؟

فأجاب عيسى العايب الذي أضاع رجله في الحرب العالمية الثانية ساخرا:

– نداقع عنها ضد عمال المزارع الأخرى!

فقال الرجل:

– أنا لا أعرف عدوا لهذه المزرعة مثل هذا «القاوري»!

وزعم أحد من الحاضرين أن ليس في المزرعة من يستطيع

لسييرها مثل الم. (ليونارد) فأجابه عيسى العايب في سخريته الدائمة:
– في الحرب أيضاً كان معنا جنرال نسميه «أحمر الخد» وكان الجنود يقولون ليس هناك من يستطيع تسيير المعارك مثل «أحمر الخد» ولما أخذت المدافع تدمدم صار كل جندي «أحمر الخد» لـكن أحمر الخد الحقيقـي لم يره أحد!
فقـال الرجل «المخلص»:
– الحرب غير الفـلاحة. في الحرب تقتل أو تموت أما في الفلاحة... فقاطعه عيسى قائـلا في تهـكـم:
– في الفلاحة إن لم تادر لمن تعمل فأنت وأي ثور سواء إلا أن الثور له قرون وأنت لا قرون لك!

وبعد فترة صمت تـكلم الشيخ موسى وهو أكبر الحاضرين وأعقلهم فقـال:
– يا أولادي، أنا أظن أن «القاوري» خايف منا. ولا يخاف إلا السارق. فقـال الرجل المذبذب رادا على الشيخ موسى:
– سرقك أنت!
فأجاب الشيخ موسى بهـدوء:
– نعم، سرقني أنا وسرقك أنت... سرق منا هذه الأرض.
فقال الرجل المدافع عن (ليونارد):
– أنت خرفت! ألا تدري أن هذه المزرعة ملـكه؟
فرد الشيخ موسى بنفس الهدوء:
– ملـكه! جاء بهذا التراب من فرنسا ووضعه هنـا!

واستمرت التعاليق والأحاديث حول المزرعة بين العمال

أما أنا فعدت إلى النار ، وكنت أشعر كأن شيئاً في نفسي تغيّر أو كأن الحياة تغيّرت. وأحزن ما أحزنني أن الرجل الذي كان يدافع عن (ليونارد) أمام العمال هو أبو رقية... فتاة جميلة كالقمح! هي الفتاة الوحيدة من بين فتيات المزرعة التى كان شعرها أصفر وعيناها زرقاوين.

* * *

وفي الليل قرر أبي أن نغادر المزرعة، أن نرتحل.

– غدا لا يطلع النهار في هذه المزرعة.

هكذا أجاب أمي عندما رجته أن ننتظر حتى يطلع النهار ونرتحل لقاء فهم أبي من خطاب الم. (ليونارد)، ما لم يخطر بذهني، وعندما ذكرت له اطلاع بعض الجيران على اعتزامنا الرحيل منعنى من ذلك.

– «لا، حضروا الاجتماع مثلنا فإن لم يفهموا ما يبيت لنا هذا الكافر، فلن يكون من اطلاعهم على عزمنا إلا الضرر.»

أنا فى البداية لم أكن خائفاً من البقاء ولا من الرحيل، ولم أكن راغباً لا في ذا ولا في ذاك ، أما أمّي فكان يبدو عليها اضطراب وحيرة لا تقدير لهما، وقالت في اختناق معيدة نفس السؤال الذي سألته عندما أخبرها أبي بالرحيل:

– إلى أين نذهب؟

– إلى مكان بعيد من هنا. حيث لا يعرفنا أحد.

حيث لا يعرفنا أحد، يكفي أن نبتعد قليلا عن المزرعة لكي لا يعرفنا أحد! وإذن فلن نذهب بعيدا كما قال أبي . لكن أبي

لا يتحدث كثيرا وإذا تحدث فلكلماته حدودها التي تنتهي عندها. «ومكان بعيد» له في مقصوده غاية.

– هل تعرف أحدا في هذا المكان الذي سنذهب إليه؟

أمي مضطربة لا شك في ذلك، وأسئلتها المختلفة حول مصير واحد تعطي لهذا الرحيل الذي نحن مقدمون عليه خطورة ورهبة.

– لا أعرف أحدا، ولكني أعرف كل الناس، وكلهم يعرفوننا.

لم أفهم أصلا في ذلك الحين أجوبة أبي لأمي. كانت غامضة متناقضة ولكن من بعد فهمتها، وأدركت منتهى ما كانت عليه من وضوح.

نغادر المزرعة ليلا، ولا نخبر أحدا من الجيران. هذا رأي أبي، وأنا... رأيى أنا؟ أليس من حقي أن أقوله؟ لا نخبر أحدا، ورقية... عندما يطلع النهار غدا، وتعلم برحيلنا ماذا ستفكر؟ كيف ستتصورني؟ لن تقول شيئاً ولكنها ستقول في نفسها عني: «ما زال صغيرا...» هل أنا صغير؟ في رأس العام أبلغ الثامنة عشرة. لم أكن خائفاً من البقاء ولا من الرحيل، لكن أحزنني قرار أبي المفاجيء بعدم إخبار أي أحد برحيلنا. أحزنني أن تعلم رقية في الغد...

ترى لو قرّر أبوها الرحيل خفية ولم نكن نحن ننوي ذلك فهل كانت أخبرتني؟

لا أظن، تخشى أن أعد ذلك منها تودّدا إلي. وهي تفعل كل شيء ما عدا التودّد إلي. إنها كذلك، لا تقول ما تحب مثل جميع سكان المزرعة. كلنا لا نقول ما نحب. كان أبي من جهة وأمي من أخرى بصدد جمع ما نملك من أثاث وأدوات منزلية، وسألت

أمي سؤالا فتح أمامي بغتة هوّة الهجرة الرهيبة التى نحن نستعدّ أن نرتمي في قعرها مختارين:

ـ هل سنعود؟

ـ لن نعود مادام «ليونارد» بها؟

ـ إذن لا نعود.

ـ من قال لك اننا لا نعود؟

ـ لن يغادر المزرعة ليونارد...

ـ يكفي من هذا الكلام الفارغ ، أسرعي لقد أوشك الليل أن ينتصف ونحن ما زلنا هنا.

* * *

سنغادر المزرعة بعد قليل، ولن نعود إليها ما دام بها (اليونارد) ، ولن نخبر أي أحد من الجيران. نخرج من هنا خفية، وفي الظلام. نخرج من دارنا هكذا.. ونذهب إلى مكان لا نعرفه.

* * *

ـ كان الظلام يخيّم على الطريق وكان أخواي الصغيران أحمد الذي يبلغ من العمر إحدى عشر سنة وسلوى البالغة ثماني سنوات ، راكبين على الحمارة التى حملنا عليها كل ما نملك من أمتعة وأثاث. أما أنا وأبي وأمي فكنا نمشي راجلين. وكنا ابتعدنا عن المزرعة بنحو الثلاث كيلومترات وإذا برجل يخرج من شجرة ذروعلى حفاف الطريق ويصيح فينا

ـ «تموتون هنا ، ظننتم أنني نائم أو سكران ، ليونارد لا ينام . تموتون هنا ، كنت دائماً أعتقد أنك أشد العمال إخلاصاً لي

وللمزرعة، فإذا أنت «فلاق».

ـ خشيت على أولادي يام. ليونارد، لم أخن عملي...

ـ أخرس يا نذل، امشوا أمامي.

ومشينا مطأطئي الرؤوس أمام ليونارد. أمام بندقيته. هل سيقتلنا أم سيسجننا؟ ومن أخبره برحيلنا؟ هل عمي أحمد؟ وأحسست بالندم يعض روحي، أنا السبب فيما نحن مقدمون عليه من مصير، لو امتثلت لأبي ولم أخبر أحدا لنجونا. كنّا نمشي نحو دار ليونارد، وكان الظلام والسكون يخيم على المزرعة، ما عدا نباح الكلاب الذي كان يشتد كلما مررنا بدار من دور الفلاحين وأمام دار عمي أحمد رأيت نورا. إذن هو الذي أوشى بنا وها هو الآن ينعم بيقظته ويحلم بجزاء ليونارد. المجرم! هذه دارنا. بدون نور، نمشي أمامها وننظر إليها بقلوبنا. دون أن نستطيع الرجوع إليها.

ـ وحاول أبي أن يستعطف الم، ليونارد لعله يدعنا نعود إلى دارنا فقال له بتضرّع:

ـ «الم. ليونارد»، أرجوك، أمشي معك أنا إلى حيث تريد ودع العائلة تعود إلى البيت. أنا المسؤول وحدي، فأنا الذي أمرت بالرحيل.»

ـ «هيا... هيا... ليس لكم بيت هنا. كلكم فلاّقة.»

ومررنا بدارنا كالأجانب. خطرت في ذهني فكرة وأنا أرى بيوت الفلاحين منحنية بظلامها على من فيها: «إذن كل هؤلاء الفلاحين ليست لهم دور هنا في هذه المزرعة، كلهم أجانب. إنما لم يغادروا بيوتهم فقط وإلا لصاروا مثلنا! ولماذا

الم. ليونارد هو صاحب كل شيء هنا؟ ألسنا نحن الذين نعمل كل شيء؟ وحده لا يستطيع أن يرعى حتى البقر. لـكن إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى دار الم ليونارد؟ وماذا نفعل فيهـا، لا شك أن هناك مصيرا أسود ينتظرنا.»

كنت أسير وراء أمي وأبي ورائي وليونارد وراءنا جميعاً. كنا كالبقر وهو وحده الرجل، هو إلهنا في الأرض، والتفت قليلا تلقائياً لأتحقق إن كان الم. ليونارد مثلنا أو مخالفاً لنا، فلم أستطع أن أراه جيـدا. كان يفصل بيننا أبي وافتعلت العثور فصاح أبي في:

– تمشي كالأعمى، انظر أين تضع رجليك.

قمت من عثرتي بمساعدة أبـي، وتمكنت من أن أصير أمام الم. ليونارد بدل أبي. كان الم. ليونارد يحمل رشاشة ولم يبق بيننا وبين داره إلا مسافة قصيرة لا تزيد عن مائة متر. كان في جيبـي موسى اشتراه أبـي من بوسعادة.

كانت بيننا مسافة لا تزيد عن خطوة، وكنت متيقناً أنه لا يستطيع استعمال بندقيتـه. سللت الموسى من غمده والتفت فأغمدته في صدره. لم أفـكر في الإقدام على هذا القرار. نبع في نفسـي عندما مررنا بدارنا ومنعنا من العودة إليهـا.

والغريب أنه لم يبد أية محاولة للدفاع عن نفسه، تعثّر خطوات وخرّ على الأرض، لم يمت. وإنما زفرات متقطعة كانت تخرج بصعوبة من حلقـه، كسعلات المسلول الذي طال مرضه، كنت أظن أن أبـي سيرى فيما فعلت خلاصاً لنا من قبضة ليونارد ويثني عليّ إن لم يحتضنني مسرورا...

وانتظرت أن يأخذ بيدي المرتجفة ونذهب أمامنا ما امتدت طريق لـكنه بدل ذلك التفت إليّ مذعورا غاضباً وقال:

– ويلك، مـاذا فعلت؟

وشعرت ببرودة قاسية تدبّ في جسمي.

انحنى أبي على ليونارد، مساعدا، محاولا تضميد جرحه، وهو يتمتم بشتائم وسباب نحوي وبتضرعات وتأوهات على ليونارد...

يا إلهي! ألأنا الضالّ أم أبي؟

– أبـي؟

– اخرس، خربت المزرعة وقتلت من فيها، لنحملـه إلى بيتـه.

– أبي، لنغادر المكان قبل أن يشعر بنا السكان، لنسرع.

– ساعدني وإلا فاغرب من أمامي...

– أمي؟

– سددت أمامنا طريق الحياة، أنج بنفسك أن استطعت النجاة.

وقفت لحظات لست أدري كم دامت، حائرا مبهوتاً. لا أدري ماذا أفعل أأنجو بنفسي كما أشارت أمي. أم أساعد أبي... أساعده؟ على ماذا؟ على الموت أم على الحياة؟

سددت أمامهـم طريق الحياة، أنا...

كم أود أن أعرف طريق الحياة، وكيف هي، وما لونهـا؟

حمل أبى ليونارد. بمساعدة أمي وأركباه على الحمارة بعد أن أنزلا أخوي أحمد وسلوى اللذين اقتربا منـي ظانين أننى سأمسك بيد أحدهما ونتبع أبوانا، ولـكن في تلك اللحظـة كنت قرّرت

الذهاب في طريق أخرى غير التي سلـكها أبواي، كان الظـلام يسود المزرعة ويغطي طريقها وطريقـي. افترقنا في الظـلام...

# الفلاح

السنابل واقفة على سوق ممتلئة مفتولة، تنظر إلى الشمس في تحد. حباتها المثمرة المتراصة تـكاد تنطلق إلى السماء... الحقل كله سنابل قائمة. الحقل مسلح... لا يستطيع الجوع أن يقترب من حقل مسلّح. الأحلام تملأ الحقل وتملأ رأس الفـلاح وزوجة الفـلاح... القرية ستشهد خريفاً سعيدا. المطامير ستمتلىء برا وشعيرا. المخازن ستمتلىء... القطط ستواجه مشاكل فى محاربة الفيران الوقحه المتعنتة... العصافير ستجعل من خريف القرية ربيعاً... النملة لن تجهد نفسها في جلب القوت ولا خزنه. الصرصار لن يجد عناء فى العثور على الرزق عندما يشتو الشتاء. لن تحدث فى القرية خصومات على الماء ولا على العيش، سينتشر الود والإخاء بين الناس. ستكثر الأفراح فى القرية وستعلو الزغاريد فى سمائها. المشكل الأساسي فى القرية هو الجوع ولـكن الجوع لن يقترب منها فالحقول مسلحـة بالسنابل المثمرة. الجوع يخشى السنابل القائمـة المثمـرة.

* * *

الفلاح أسكره التعب وأسكرته الغبطة بهذا التعب. إنه ليس أجيرا فى هذا الحقل، فالنهار مهما طال فهو قصير مادامت السنابل قائمة أمامه. والتعب مهما كان شديدا فيهون ما دام انه يبذله في جمع غلته التي تقيه شر الخصاصة وشر الحاجة إلى الغير. الشمس محرقة في هذا اليوم، لكن لا يهم...

إنه ليس أجيرا. هذا العرق السائل من جبينه لم يبعه لأحد. المنجل حاد ولكن سوق السنابل صلبة. سوف يضطر لتضريسه عما قريب. لا يملك ثمن ذلك ولكن الحداد لن يمتنع عن تأجيل الدفع... السنابل القائمة المثمرة لا يخشى صاحبها الدين. الحداد رجل طيب، عرقه أسود وثيابه سود ولكنه يرفق بعمال الأرض ويساعدهم... هو مثلهم ينتمي إلى الأرض. حياته، رزقه، عمله كلها مرتبطة بالفلاحة. بجدبها وخصوبتها. بحرها وقرها لن تمنعه حرارة هذا الصيف من قضاء أيامه أمام جحيم الفرن. المناجل في حاجة إلى تضريس فسوق السنابل صلبة فى هذه السنة. قهواجي القرية سيقضي أيامه متكئاً على السدة الظليلة أمام باب المقهى. لن يبيع قهوة واحدة بالنهار. القرية سترتحل عن القرية إلى الحقول حيث السنابل تتحدى الشمس !

* * *

نظر الفلاح ملياً إلى الحقل المكتضة سنابله ، محاولا أن يقدر كم يغله من صاع ثم خاطب زوجته قائلا في اغتباط :

— مات... قتلته هذه السنابل !

فردت زوجته سائلة في حيرة:

— من الذي مات؟

فضحك ضحكة خفيفة والتفت إليها مطمئنا:

- الجوع... الجوع هو الذي مات! لن نراه في هذه السنة.

فقالت الزوجة ضاحكة وقد زالت عنها الحيرة:

- ظننت أن أحد السكان مات...

واستطردت سائلة:

- كم تظن أننا نبقى هنا؟

فأجاب الزوج مؤكدا:

- كامل الصيف.

فردت قائلة باستغراب:

- كامل الصيف! ولماذا؟

فقال الزوج:

- لماذا؟ أرأيت كم حصدت منذ الفجر إلى الآن؟ أمتارا... أمتارا في أكثر من ست ساعات! سنقضي على الأقل شهرا في الحصاد وحده...

لم يمض على إقامة الزوجين وأطفالهما بالحقل إلا ليلة واحدة. فقد نزلوا فيه بالأمس. كان يبعد عن سكناهم بالقرية بحوالي عشرة كيلومترات. وقرّر الزوج أثناء زيارته الأخيرة للحقل الرحيل إليه والسكنى به، فهو لا يملك بغالا ولا وسائل تمكنه من نقل الحصيد يومياً إلى القرية، ولا أموالا يستأجر بها معاونين في الحصاد وكانت السنة ذات خصب عظيم. والفلاحون في السنوات الخصبة تكثر أعمالهم، فلا يستطيع أن يجد أحد من أحد عوناً أو مساعدة، فالكل مشغول بجمع غلته. فلم يبق إذن بين يدي هذا الفلاح

إلا الاعتماد على ساعديه والرحيل إلى حقله، تخفيفاً من عناء التّنقل بين القرية والحقل كل صباح وكل مساء. وحرصاً على جمع غلته فى أقصر وقت ممكن.

كانت هذه الأسرة فقيرة مدقعة فى الفقر، تتركب من الزوج وزوجته وثلاث بنات كبراهن لا تتجاوز الثامنه. وطفل فى السادسة من العمر.

وكان هذا الفلاح لا يملك إلا حمارا والكوخ الذي يسكنه بالقرية. أما هذا الحقل فهو لأحد أقربائه المهاجرين في فرنسا.

وكان الإقدام على حراثته من طرف هذا الرجل الفقير لا يخلو من مغامرة فقد استدان البذر واستدان أجرة الحراثة. وقضى الشتاء والربيع فى الاحتطاب لتسديد الدين الذي كلّفه حرث الحقل.

* * *

واستأنف الفلاح قائلا:

– أرأيت؟ من منا المصيب، أنت؟ أم أنا؟

فقالت وهى تضع أمامه قرصاً ضخماً من خبز الشعير الذي أعدته:

– خفت أن تبقى البذور فى باطن الأرض كالسنوات السابقة...

فقال الزوج فى ارتياح وهو يرى صفاء قرص الخبز أمامه واحمرار قشرته:

– أنا أدركت منذ الخريف الماضي أن السنة ستكون خصبة فقد مرّت علينا سنوات طويلة من القحط...

واستطرد قائلا:

– انظري إلى هذا الخبز... إنه كالشّهد!

كان الخبز فعلا جميلا- صافياً تقبل عليه النفس. فهو من الغلة

الجديدة. وكان كلا الزوجين راضياً مغتبطاً بهذه الحياة الجديدة في الحقل. وكانت الزوجة تقوم من جهتها بدق «أغمار» من الشعير وتذريتها وطحن الحب لإحضار ما يكفيهم من طعام يومياً، بالإضافة إلى العناية بأطفالها وشؤون خيمتها، أما الزوج فكان يقوم بالحصاد... طبعاً لم يتفقا مسبقاً على تقسيم العمل بينهما بهذه الطريقة ولكن طبيعة الحياة في الحقل تقتضي ذلك.

وكانت الزوجة تعتزم أن تنظّم شؤونها بكيفيّة تسكّنها من التّفرّغ في أقصر وقت إلى مساعدة زوجها في الحصاد وجمع الغلّة.

أخذت الطفلة الصغيرة التي لا يتجاوز عمرها العامين تصرخ داخل الخيمة فخشي الزوج أن تكون قد آذتها بعض الحشرات وقال لزوجته آمرا:

– اذهبي إلى الطفلة... إنها تصرخ كما لو لسعتها عقرب!

فأجابت الزوجة مطمئنة:

– إنها تبكي من عينيها... إنه الرّمد. في المساء سأربط على عينيها البصل.

وسكتت هنيهة ثم سألت زوجها قائلة:

– أنختن الطاهر في هذا الخريف؟

فأجاب الزوج:

– أخشى أن لا ننتهي من الدراس في الإبان ويفوت الحال.

واستأنف قائلا:

– على كل ما زال صغيرا، إن لم نختنه في هذه السنة فسيكون ذلك في السنة المقبلة.

فردت الزوجة معربة عن مخالفة رأيها لرأيه وعن تصميمها على أن تـكون الختانـة في ذلك الخريف، وقالت:

– نختنه في هذا الخريف. أستّ سنوات في عمره وتقول مازال صغيرا؟

أما السنة المقبلة فمن يدري كيف تـكون؟ لا أترك سنة الخير وأنتظر سنة مجهولـة...

– كوني عاقلة يا امرأة! إننا في بداية الحصاد... ويوم أن نتمّـه ونتـم الدراس ونجمـع غلتنا نستطيع حينئذ أن نتحدث عن الختانة، ما يشغلني الآن هو ترى من يعطينـا بغلـه للدراس؟

فقـالت الزوجة فى اطمئنـان:

– الذي أعطانا هذا الخير يعطينا من يساعدنا على الدراس.

فقال الزوج كمن يحدث نفسه وهو ينظر إلى الحقل الممتد أمام بصره وسنابلـه المتراصـة:

– آه، لو كانت مـكينة حصاد ودراس لجمعنا غلّتنا في يومين!

فردت عليه زوجته قائلـة:

– مـكينة حصاد ودراس!... القرية كلها لا تستطيع أن تشتري مـكينـة!

فحـرّك الزوج رأسه نافياً وقـال:

– لا، يا ابنة الناس، القرية تستطيع أن تشتري أكثر من مـكينة، ولـكن الناس لا يحبون تغيير عوائدهـم. فلو اتفق عشرة فقـط لاستطاعوا شراء كل الالآت الفـلاحية الحديثـة أو اكتراءهـا، ولتغير بذلك وجه القرية وصارت الفـلاحة غير ما هي عليه الآن.

فقالت الزوجة بتهكم:

- يتفقون!... إن أفراد العائلة الواحدة لم يتفقوا فضلا عن سكان قرية!

فرد الزوج مؤكدا:

- ولكن لا بد أن يأتي اليوم الذي سيتفقون فيه بالرغم من خلافاتهم.

- سوف يتفقون!... إنك تحلم يا رجل! أيتفق الأغنياء مع الفقراء؟

فقال الزوج:

- سيتفق الفقراء مع بعضهم بعضاً.

- الفقراء يمنعهم فقرهم من الإتفاق. ثم على ماذا يتفقون؟ إن اتفاقهم وعدمه سواء!

فرد الزوج مؤمناً بما يقول:

- إن اتفاقهم يغيّر وجه الأرض يا مسكينة! إنهم لم يعرفوا ما يملكون من قوة فقط وإلا لرأيت كيف تصير الحياة!

- هم ضعاف جياع، وهم وحدهم لا يستطيعون فعل أي شيء.

فخاطبها بقوة:

- قلت لك يستطيعون كل شيء. ولكنهم لا يعرفون حقيقة قوّتهم. وسوف يعرفونها...

• • •

أتم الزوج أكل خبزه ورجع إلى منجله، أما الزوجة فانطلقت

النارِ بعد أن انتهت مُن إنضاج الخبز ، وجمعت أدواتها ورجعت إلى الخيمـة لإطعـام أبنائهـا.

كانت الساعة حينئذ العاشرة صباحاً، وكانت الشمس ترسل على الأرض أشعّة من نار، فاشتد الحر وصار لون السماء أشهب غائم الآفاق.

وانطلقت أصوات العمال من أحد الحقول القريبة في أداء جماعي تمـدح أحد الأوليـاء:

| | |
|---|---|
| ربـــي ربـــي | لا من شاف سيد العربي |
| يبـــرا قلبـــي | من الأضرار ذاك دواه |
| نـــورو يسطـــع | وإلى عـاد فوق المرفـع |
| راه يسمـــــع | للسـدات فـــي معنـــاه! |

فوصل الغناء إلى سمع الفـلاح فاستعذبه وأثار في نفسه كوامن الشوق والوحدة وراح يغني أغنية صحراوية بصوت قوي عذب النبرات:

| | |
|---|---|
| يا خوتـي نا خاطري لا با يصبر | ما دام المحـايـن عنـي يطوالو |
| انضل ندنق للطرق كانش خاطر | والحضنة وعبادها قلت تسالو... |

واشتد غناؤه واشتد حماسه وأخذ المنجل في يده يلتهم السنابل التهاماً. لم يـكن يشعر بأي تعب. كانت غبطته أكثر من جهده، وأمله أوسع من يومه ومن الحقل الممتد أمامه. وكانت السعادة بهذا الخير المنغمس فيه تملأ نفسه وشعوره وكل ذرات كيانه. هل هناك سعادة تماثل سعادة فلاح فقير في حقل خصب حرثته سواعده؟ إن الجوع يخشى السنابل المثمرة. الأحلام تملأ الحقل وتملأ رأس

الفلاح... القرية ستشهد خريفاً سعيدا... الأطفال لا يبكون جوعاً في ليالي الشتاء الطويلة.

* * *

التحقت الزوجة بزوجها. السنابل تسقط على الأرض بين منجلين. الحماس يزداد عند كليهما. قوة الرجل ضاهاها صبر المرأة، النظرات تتبادل بين الزوجين مشرقة، والبسمات أيضا... كلاهما يحسّ في نفسه حناناً لصاحبه. المنجلان يلتهمان السنابل. العرق يتصبب من الجبينين. أكوام الحصيد تتكاثر وراء الزوجين. خصب الأرض امتد إلى القلبين. الذكريات تتحرك: عشر سنوات إلى الوراء... ليلة الزفاف... العريسان... القبل... الزوجة تلتصق بزوجها... المنجلان ينطلقان معاً ويعودان معاً... الزوج يقف... يلتفت إلى زوجته فتتوقف... يتبادلان نظرات مليئة بالحنان والشّوق. يضع المنجل على الأرض ويأخذ رأسها بين يديه فيقبّلها... الزوجة تردّ في خجل:

— «لا يا رجل! الناس، الناس قد يرونْنا.. لنا كل الليل.»

المنجلان ينطلقان من جديد، يلتهمان السنابل، أكوام الحصيد تتكاثر وراء الزوجين. شوق كليهما لصاحبه يزداد... خصب الأرض انتقل إلى القلوب. حرارة الشمس أثارت حرارة العاطفة. السنابل الواقفة تنظر إلى السماء. النهار مضى نصفه لكن الشمس ما تزال عالية.

* * *

الأفق الغربي تراكمت عليه الغيوم. أخذت أشعة الشمس تصل

إلى الأرض في اصفرار . بدأ الجوّ يثقل . الحرارة اليابسة أخذت تندى الغيوم في الأفق الغربي بدأت تتكثف .
اللون الرمادي مال إلى السواد .

الفلاح ينظر إلى الأفق الغربي. الزوجة تلمح على وجه زوجها علائم الحيرة فتتساءل :

— أتظن أن هذه الغيوم تتحول إلى مطر ؟
— أخشى ذلك. أن سحب الغرب لا ترحم .
— اللهم احفظنا واحفظ فلاحتنا .

الزوج تضيق نفسه، يشعر بالحيرة. الأفق الغربي يزداد سوادا . الريح تتحرك . العمال في الحقول المجاورة يتوقفون عن الحصاد وينظرون إلى الغرب. الغرب أسود، ينذر بالرعد وبالعاصفة .

الزوجان يعودان إلى الخيمة للتأكد من أوتادها وبعدها عن السيل .اللحاف الأسود يمتد بسرعة على السماء فيغطي الشمس . الأرض تعبس. ...

العمال في الحقول المجاورة يتسارعون إلى جمع أثاثهم وبغالهم . اللحاف الأسود في السماء يتدلى فيصل الأرض . البرق يشق السواد في لمعان عنيف. الرعد ينفجر.

الفلاح ينظر إلى الغرب حائرا خائفاً . الزوجة تنظر إلى وجه زوجها الحائر. الأطفال يقفون أمام باب الخيمة ينظرون إلى أمهم ...

ضوء البرق يتوالى وصوت الرعد يتلوه في عنف متزايد . الريح تشتد. زوابع الغبار تسد منافذ الجو . القطرات الأولى من المطر تنزل. الغبار يتصاعد إلى السماء . الرعد يزداد عنفاً... الريح

تزداد شدة . العاصفة تصل... البرد ينزل كالرصاص على الأرض. الدنيا تظلم. الزوابع تشتد . الرعد يقصف. حجارة البرد تعصف بالحقول عصفاً...

الأطفال يبكون داخل الخيمة التي تكاد تسقط عنهم . الزوج إلى جانب زوجته حزين. الزوجة تدعو الله :

ـ «يا رب ! ارحم هؤلاء الصغار! يا رب احفظ فلاحتنا» الزوابع ودوي الرعد وسقوط البرد على الأرض والغبار المتصاعد إلى السماء صير الحقل دوامة من ظلام. السنابل تتساقط ضحايا . الحقل يصير هشيماً ملطخاً بالطين . السماء تأخذ ما جاءت به الأرض.

الفلاح ينظر إلى الحقل مشدوهاً... الكلمات يصعب خروجها... صارت زجاجاً في حلقه... وتمتم بجهد :

ـ «لماذا ؟ لماذا يا رب!...»

صار الحقل كله هشيماً ملطخاً بالطين. لم تبق فيه سنبلة قائمة .

انتهى الصيف في يومه الأول وانتهى الأمل .

وعاد الفلاح إلى الخيمة خائر القوى يملأ الحزن نفسه والمرارة قلبه ..

لقد صارت سنابل الحقل الجميلة هشيماً وغثاء أحوى ملطخاً بالطين .

الجزائر في 16 أوت 1971

# الرسالة

دخل الزّوج إلى البيت وعلائم العياء بادية على حركاته، فعلّق عصاه في معلاق بالحائط، ثم اتجه نحو زاوية البيت حيث نار الموقد تبتسم تحت لحاف الدخان الذي يغطيها. وكانت الزوجة جالسة هناك، منشغلة بالنظر إلى ألسنة النار، تتبعها إذ تعوج وإذ تستقيم، كأنها غير مبالية بدخول زوجها، أو كأنها تنتظر من ألسنة النار أن تعيد إليها بعضاً من أمل، وتحدّثها بما يشغل غيابات نفسها... فجلس قرب الموقد، قبالة زوجته، وأخذ يسخن يديه على النار يفرك هذه بالأخرى كما لو أنه بصدد غسلها بالماء، وفهمت الزوجة أن اغتسال زوجها ليديه بنار الموقد لا يدل على شدة القر فقط، ولكن على العودة خائباً كالمرات السابقة... هكذا يفعل دائماً: يفرك يدا بيد ويخلل أصابعه ثم يفتح يديه ويقربهما جدا من النار ثم ينفضهما ويعيد هما نهائياً إليه.

ولكنها رغم فهمها لمدلول هذه الحركات لم تستطع البقاء صامتة، إن ما يدفعها إلى إلقاء أسئلتها القديمة على زوجها أقوى من إرادتها. وسألته قائلة:

— هل ذهبت إلى البريد؟

ـ ذهبت،

ـ هل الحاج رزقي هناك؟

ـ هنـاك،

سـكتت هنيهـة ثم استأنفت سؤالهـا:

ـ ألم تأت أي رسالة من عند الطيب؟

وكانت تنتظر أن زوجها سيجيبها بالنفـى كالعادة، ولـكن الزوج، إن لم يغير من حركاته العادية ومن الـكيفية التى يسخن بها يديه على النار، فليس يعني ذلك دائماً أن الحياة لن يجد فيها جديد.

وقال مجيباً ببرودة:

ـ جاءت رسالة،

وقالت له بعتاب لا يخلو من غضب:

ـ جاءت رسالة وأنت ساكت؟

ـ وماذا تريدين أن أفعل؟

ـ ماذا أريد أن تفعل؟ أن تقول... أن تتـكلّم... أن تقول:

«جاءت رسالة من عند الطيب» بمجرد دخولك، ماذا أريد أن يفعل؟ أرأيتم يا ناس؟ لو لم أسأله لما أخبرني بشيء؟ جاءت رسالة وهو ساكت؟

لـكن فرح الزوجة بخبر الرسالة التي جاءت من عند ابنها الوحيد كان أكبر من الغضب ومن كل شيء، وقالت له:

ـ كيف هو؟ هل قال لك متى يعتزم الرجوع؟

فأجاب الزوج بنفس البرودة:

ـ لم يقـل.

ـ هل هو دائماً يعمل في مكانه السابق؟
ـ لم يقل.
ـ هل قال لك انه في صحته بخير؟
ـ لم يقل.
ـ إذن هو مريض؟
ـ لم يقل.
فغضبت من هذه الأجوبة الباردة وقالت بتذمّر:
ـ وماذا قال لك في رسالته إذن؟
ـ لم يقل شيئاً ذا بال.
ـ هل أرسل لك الدراهم؟
ـ لم يرسل.
ـ هل قال لك انه سيرسل عما قريب؟
ـ لم يقل.
سكتت على مضض، ثم بعد برهة من الزمن قالت في سخط:
ـ ولماذا أرسل إليك الرسالة إذن، ما دام لم يقل فيها شيئاً، ولم يرسل دراهم؟
ـ أحب أن يبعث رسالة فبعث.
لم تطمئن الزوجة إلى هذا الجواب وقالت لزوجها في استنكار:
ـ إنك تكذب عليّ: لم تأت من عند الطيب أي رسالة،
أدخل الزوج يده في جيبه وأخرج الرسالة، وقال:
ـ وهذه، أليست رسالة؟
فقالت له في استعجال؟
ـ أرنيها.

فقال لها بنفس الهدوء والبرودة، وفي نفس اللهجة الحزينة الوديعة:

– وماذا تفعلين بها؟

– أريد أن أراها.

– ولكنك لا تقرئين.

– وأنت... هل تقرأ؟

– أنا قرأتها لدى الحاج رزقي.

– قلت لك أرنيها ولا يهمك.

– خذيها...

أخذت منه الرسالة وقلبتها على جميع جهاتها، ثم أخرجت من الغلاف الورقة وبدت لها مملوءة كتابة من أعلى إلى أسفل، ورفعت بصرها نحو زوجها وقالت له بغضب وهي تشير إلى الكتابة التى تملأ الرسالة:

– كل هذا، وأنت تقول: لم يقل شيئاً؟ أتظننى غبية ؟ إنني ولو لا أحسن القراءة أفرق بين الرسالة التي فيها أخبار كثيرة والتي لا خبر فيها.

فأجابها الزوج بسخرية:

– تعرفين كثيرا...

فلم تدعه يتمّ كلامه وقاطعته قائلة:

– قل، ماذا قال لك الطيب في هذه الرسالة؟

لم يجبها الزوج. وبالرغم من أن هدوءه لم يفارقه، ولم تؤثر فيه لهجة زوجته الغاضبة إلا أن وجهه كان يبدو غائماً حزيناً.

وكرّرت الزوجة سؤالها:

— قل، ماذا قال لك؟

— قلت لك ألف مرة لم يقل شيئاً — لو رأيت في الرسالة ما يسر لبادرت بإخبارك بمجرد دخولي.

— إذن حملت إليك هذه الرسالة أخبارا حزينة؟

— لم تحمل ما يسر ولا ما يحزن.

— وماذا فيها إذن؟ ولماذا كتب كل هذا؟

— إنك أثرت ضجة لا معنى لها.

— أتريد أن أسكت؟ جاءت رسالة من عند ابني وأسكت؟ يا الهي لهذا الرجل يريد منى أن لا أسأله عن ابنى الذي انقطعت أخباره منذ شهور.

ذهب الطيب الى فرنسا بعد أن يئس من وجود عمل تكفي أجرته المعاش والسكن. لم يكن يطمح أن يحصل على ثروة في يوم من الأيام من عرق جبينه، ولكنه كان يرجو أن لا يضطر إلى المبيت بالحمام، مثل الأشهر التي قضاها بالجزائر عاملا بإحدى المقاهي.

فرنسا لا تعطيه من الأعمال إلا آشقّها كبقية مواطنيه هناك، ولكنه لن يبيت بالحمام، ولن يضطر لإنفاق آخر فرنك من أجرته لتسديد حق الأكل والمبيت... سوف يستطيع توفير جزء من أجرته لإعانة والديه وتسديد ثمن مهر خطيبته وتهيئة الجهاز شيئاً فشيئاً...

طبعاً كان عزمه مقصورا على العمل في فرنسا سنتين أو ثلاثاً فقط. فقد علم مسبقاً بكل ما ينتظره هناك من خلال، الرسائل التي

تبودلت بينه وبين ابن عمته تكفل بايجاد الشغل له والسكن ، كما عرف قبل أن يسافر مقدار الأجرة التي سوف يتقاضاها تفصيلا. فهو سوف يعمل بأحد معامل البلاستيك. وسوف يسكن مع ابن عمته في إحدى ضواحي باريس الصناعية.

أما خطيبته فتستطيع أن تنتظر ثلاث سنوات، حسب ما اتفقت عليه العائلتان. ثلاث سنوات كثيرة في المدن، أما في الأرياف فالزمان لا يعد بالأيام والساعات ولكن بالفصول. ويعد بما تغلّه الفلاحة لأهلها سنوياً، فإذا كانت السنون عجافاً فهي تلغى من الزمن ... انتظار ثلاث سنوات اذن ليس كثيرا على هذه الخطيبة . سوف تتمكن فيها من تهيئة نفسها ماديا وفكريا ولحياتها الجديدة المقبلة . فحياتها قبل الخطبة لا تعني شيئا ، أما بعدها فهي تعني كل شيء . سوف تتعلم ممن تقد منها سنا كيف كيف تكون زوجا ؤوما وكيف تكون شيطانا أيضا اذا الزم الأمر . وسوف تتعلم كيف تربط أحلامها ومشاعرها بواقع معين ، وبشخص معين ، فى هذه السنوات التي تفصلها عن الزفاف . فأيام الخطبة تشكل بالنسبة اليها برزخا بين حياتين ...

ذهب الطيب إلى فرنسا! إذن بنية الإقامة فيها لا أكثر من من ثلاث سنوات، وترك وراءه أبويه وخطيبته ذات الشعر الأصفر

الكثيف الذي زادته طبيعة الريف كثافة ومتانة، وأعطته موجات لم تصل إلى إتقانها المشط، ومنحته رونقاً تعجز الأصابع عن الوصول إليه، وترك بعد أبويه وخطيبته قريته الجميلة الفقيرة التي سوف تصير بعد سنوات قليلة خلية حية ضاجة بالعمل، حسب المشروع الذي خططته الحكومة لإنماء تلك الجهة من الوطن. في سنته الأولى بفرنسا كانت رسائله إلى أبيه أسبوعية، وفي السنة الثانية صارت شهرية أما في هذه السنة الثالثة التي مضى على انتهائها أسبوعان فانقطعت فيها رسائله، والرسالة التي جاءت منه اليوم هي الأولى منذ سنة وأسبوعين؟ للأم إذن، أن تغضب على زوجها الذي لم يعد إليها بجديد رغم مجيء الرسالة فموعد الزفاف حلّ، وأهل الخطيبة لا يسمحون بتمديد الأجل إلى ما لا نهاية، ومن يدري قد يتحول انتظارهم ثلاث سنوات إلى سخط ساخط، وتتحول علائق القربى والود والمصاهرة إلى قطيعة وضغائن وأحقاد؟

إن طبيعة الريفي التي تتسم بالصبر والأناة لا تقبل المماطلة في الوعود الجاده وهل هناك وعد أشد جادية من خطبة فتاة؟

هذه التخوفات هي التي كانت تشغل بال الأم، وكانت تشغله أيضاً تخوفات أخرى، رأت صورا منها في القرية لدى عائلات كثيرة: هناك كثير من الشبان الذين ذهبوا إلى فرنسا للعمل بها سنة أو سنتين، لم يعودوا أبدا إلى وطنهم... فإن فعل الطيب ذلك فتلك هي المأساة. المأساة التي طالما أبعدت الأم صورتها عن خيالها. ابنها الوحيد لن يفعل كالاخرين ـ سيعود، لا شك في ذلك.

انتظر الزوج التعبان أن تقوم زوجته فتعد له قهوة، ولكن

هذه لم تفعل. كانت منشغلة بالرسالة، استولى مضمونها المجهول على كل اهتماماتها، وفتح المجال إلى انطلاق الهواجس والتصورات، وراحت تتخيل نفسها عجوزا هرمة، نظرها معلق بما وراء الأفق الشمالي، وهي وحيدة، حكم عليها القضاء بالوحدة وبالشيخوخة وبالانتظار اليائس، انتظار الإبن الوحيد الذي لا يعود. الإبن الذي أنسته ضجة باريس الدائمة في صمت قريته الدائم، وحركتها المستمرة في سكون قريته المستمر، تخيلت نفسها أنها فقدت ابنها وفقدت زوجها أيضاً، لأنها كانت تعتقد دائماً أن زوجها سيموت قبلها، ويتركها وحدها تعاني شقاء الحياة وأتعابها وتخيلت نفسها وهي في شيخوختها ووحدتها أن كل سكان القرية يهجرونها ويتجنبون معاملتها ولم ينسوا لها رغم مرور السنوات الطوال، عدم وفاء ابنها بالعهد، ابنها الذي ترك خطيبته ووطنه وبدلهما بحياة لا غاية لها، وبوطن كان سكانه ذات يوم، بعض سكانه، أسيادا طغاة على هذه القرية الآمنة.

ومن الشيخوخة والمستقبل البعيد أرجعها الخيال إلى الحاضر، إلى الغد القريب.. سوف يسألها أهل سعدية، خطيبة ابنها، عن موعد الزفاف الذي حل أجله. سوف لا تجد بين يديها أيّ عذر تقدمه، ما دفعته من هدايا وملابس إلى الخطيبة يوم الإعلان عن الخطبة لن يعود لها، لا شك في ذلك. ولو كانت المسألة تتعلق بما خسرته فقط لهان الأمر، ولكن سوف تضايق ثم تلام، ثم تتبدل العلائق فتسوء بعد أن كانت حسنة، ثم يشيع الخبر في القرية فيصير الإبن وأمه وأبوه حديث الناس وسمرهم...

ثم تتلاقى بنساء القرية فيسألنها عن ابنها هازئات متفكهات...

إن الموت أفضل من السماع الدائم إلى ما لا سبيل لاتقائه من كلام مؤذ، يمس كرامة العائلـة وسمعتهـا.

وفي غمرة هذه التصوّرات والتّخيلات سمعت زوجها يقول:

ـ والقهوة، ألا نشرب قهوة؟

فأجابتـه وقد تذكرت أنه لم يأت بالقهوة كما أوصته:

ـ ذكرتني، لماذا لم تشتر القهوة؟

ـ من قال لي اشتري القهوة؟

ـ ألم أقل لك وأنت خارج، لا تنس القهوة أنه لم يبق عندنا شيء؟

ـ أنت قلت لي ذلك؟

ـ يالله لهذا الرجل؟ ماذا جرى لك يا رجل؟

ـ لم أسمع أبدا ذكر القهوة، والله،

فقالت بتذمر وقد استعملت ضمير الغائب:

ـ لست أدري كيف أفعل مع هذا الرجل؟ أوصيته أن يشتري القهوة فعاد فارغ اليدين، وطلبت منه أن يحدثني عن رسالة الطيب فزعم أن ليس بها شيء يذكر، بيد أنها مملوءة كتابة... ونسي أو تناسى أن موعد الزفاف قد حان أجله، وأننا لا بد أن نجيب آل السعيد أوصَالح، أما بالنفي أو بالإثبات.

فـكّر الزوج أن يخبرها بما في الرسالة، ثم بدا له أن الوقت غير مناسب، إذ أن مزاج هذه المرأة حاد للغاية، وهو في حاجة إلى قدر من الراحة والتفـكير الصامت، فالقرية التي عاد منها، حيث البريد، تقع على بعد عدة كلومترات من بيتـه الجبلي.

وهذه المسافة ولو أنهـا نسبياً ليست كبيرة إلا أن الطريق

الموصل إليها شاق للغاية، ففـي الذهاب ينحدر متعثرا بين الأحراش والالتواآت، وفي الإياب تواجهـه عقبـة مجهـدة مرهقـة، يشعر معها أن رجليه كلمـا حاولتـا التقـدم تأخرتا، حتى عصاه لا تفيده كثيرا وهو صاعد، هو يذهب إلى هذه القرية حيث البريد والدكاكين والسوق مرة في الأسبوع. كانت هذه المسافة عند ما كان شاباً يقطعها في ساعة من الزمن وهو عائد، وفي أقل من ساعة وهو ذاهب، لانحدار الأرض. ولـكنه الآن قد جاوز عمره الخمسين صار يقطعها بأكثر من ثلاث ساعات وهو صاعد. صيرت سنّه إذن هذه المسافة طويلـة أكثر مما هي عليه في الواقع. ثم خيبتـه المتـكررة طوال هذه السنـة وانقطاع رسائل ابنـه الوحيد، زادتها طولا على طول. ففـي السنـة الأولى التي ذهب فيه ابنـه إلى فرنسا، عندما كانت تأتيه الرسائل أسبوعياً، كان لا يحس كثيرا بالعياء من المشي، كان الأمل يعطي إلى سنه المتقـدمة دفعـة من نشاط لسهل عنـاء السير، وفي السنـة الثانية، أخذ يحس بمشقـة هذا السفر الأسبوعي بين بيتـه الجبلـي والبريد، لـكن الحوالات التي كانت تصلـه بانتظام، سهلت عليه مشقـة هذا السفر. كانت بمثابة قوة إضافية خارجيـة تعزّز وهنـه وتشـد عضـده.

أما في هذه السنـة التي انقطعت فيها الرسائل وانقطعت فيها الحوالات أيضاً، صار هذا السفر إلى البريد عقاباً أسبوعياً يناله الأب جزاء شوقـه الأبوي لإخبار ابنـه الحبيب.

وليت الأمر توقف عند انقطاع الرسائل والحوالات، إذن لوجد في نفسـه قوة تعينـه على الصبر وتعينـه أيضاً على السير. ولـكن الأسئلـة المتهـكمة والملاحظات المختلفـة التي صار يتلقاها

من معارفه ومن الحاج رزقي صاحب الدكان حيث عنوانه، آذته وآلمته... فهناك من قال له: «أنت السبب في ذهابه إلى فرنسا. لو تأنّيت في موضوع زواجه، لما اضطر إلى الاغتراب...»

ولعل تأثره من هذه الجملة كان أكبر وأشد من كل ما سمع من ملاحظات وتلويحات بخصوص انقطاع أخبار ابنه، فقد أصابته في الصميم كما يقولون. لأنه في حقيقة الأمر هو السبب... ابنه لم يكن يرغب في هذا الزواج، لا لكون الفتاة لم تعجبه أو أهلها، ولكن لضيق ذات اليد وعدم ملاءمة ظروفه المالية والعملية لمتطلبات الزواج. كان يفضل الانتظار حتى يدخل مشروع الحكومة الخاص بإصلاح الناحية، حيز التنفيذ، وبذلك يستطيع بدون شك أن يجد عملا في نطاق هذا المشروع الهام يضمن له الاستقرار والعيش، وعدم الاضطرار إلى الأعمال التافهة التي كان يقوم بها بالجزائر كغاسل أواني بالمقاهي، وكان حينئذ باستطاعته أن يتزوج وأن يقيم بين أبويه وسكان قريته.

ولكن الأب كان قد قرر الزواج وضرب صفحاً عن مواتاة الظروف وعن العمل. ولم يجد الإبن بدّاً من الرضوخ إلى ما قرّر أبوه... وهكذا وجد نفسه ذات يوم حاملا حقيبته السوداء إلى الباخرة التى ستقله إلى الضفة المقابلة حيث عرق العمال لا يسيل ماء على الجبين ولكن يخرج دخاناً عالياً من مداخن كثيرة باسقات تروي إلى السماء قصة كفاح العمال من أجل الحياة.

تأثر الأب تأثرا بالغاً من هذه الجملة القاسية المؤلمة التى أسمعها إياه أحدهم «أنت السبب فى ذهابه إلى فرنسا»

وقال في نفسه وهو ينظر أمامه إلى الموقد الذي أخذت ناره تصفو من دخانها:

«أنا السبب في ذهابه إلى فرنسا... لماذا أنا السبب؟ هو الذي أراد الذهاب إلى هناك لأنه لم يجد عملا هنا. لو توفر الشغل في بلادنا لما ذهب أحد إلى فرنسا. من ذا يحب حياة الغربة، كل الذين هاجروا الوطن هاجروه مضطرين. عدم الشغل هو السبب لست أنا. أنا زوجته بالرغم من فقرنا وعدم طاقتنا على ذلك لأن هذه البنت هى أحسن فتيات القرية جمالا وحسباً، خفت أن يخطبها غيرنا فبادرت بالخطبة، وظننت أن الطيب يكون عند حسن ظني.. من قال أني سأجازى بهذه الخيبة المرة، من قال أنه ستنقطع أخباره عني سنة كاملة، وتصل به القساوة إلى هذا الحد؟ سنة كاملة وأسبوعان وأنا أعود إلى البيت كل أسبوع أحمل الحسرة والخيبة.. لا رسالة ولا دراهم ولا خبر؟ سنة كاملة وأسبوعان... وأخيرا تأتي الرسالة... ليتها لم تأت هذه الرسالة المرة؟ أنا السبب... لست أنا السبب، هو الذي أراد. لو فكّر كما أفكر لما قطع أخباره سنة وأسبوعين ثم أرسل إلي هاته الصاعقة... ماذا سيقول عني الناس عندما يسمعون؟.. لماذا يا إلهي هذا العقوق من ابن وحيد...»

كادت دموع الأب أن تسيل وهو يحادث نفسه. لو عرفت زوجته مقدار ما كان فيه من حزن، وما كان يحسه حينئذ من أسى وحسرة لرفقت به، ولما جانفته إلى هذا الحد. ولكانت بالأقل أعدت له قهوة ليستعيد بعض نشاطه، ويطفىء هذا الحزن الذي يحرق قلبه، لكنها لا تدري... إن هي لجت في الحديث معه

وغضبت فلأنها تتحرق شوقاً إلى أخبار ابنها الوحيد، ولأنها أيضاً خشيت العار مثلما خشيه الزوج خشيت ألسنة الناس، وخشيت أن تضيع كل الآمال التي علقتها على زواج ابنها هباء، وتصبح في شيخوختها كما كانت في شبابها وحيدة.

ساد الصمت بين الزوجين الشيخين فترة من الوقت، وكانت نار الموقد تمنح كلاهما تلهية وسلوى، وتبعث في نفس كليهما ذكريات كثيرة وأحاديث نفسية طويلة ، ولم تشأ الزوجة أن تستأنف الحديث مع زوجها الشيخ، فقد انخفضت درجة إلحاح الأسئلة التي كانت تتزاحم في نفسها، وأخذ يعود إليها هدوءها الحزين وصمتها، وبالرغم من أن شكوكاً كثيرة كانت ما تزال تعتمل في نفسها حول موضوع الرسالة. وفكرت أن هذا الهدوء الذي يتظاهر به زوجها لا شك أنه يخفي وراءه خبرا غير مسر، قد يكون ابنها أخبر أباه مثلا بأنه لا يعتزم العودة في هذه السنة وأنه طوال فترة انقطاع رسائله كان مريضاً أو كان عاطلا بدون عمل.

ربما يكون ذلك ، وربما هناك شيء آخر حدث لم يرد الزوج أن يخبرها به ؟

على أية حال فكرت أن تنقطع عن الأسئلة وأن تلتزم الصمت، أن تصبر... فإن كان هناك خبر أراد زوجها إخفاءه عليها فالأحسن أن تتركه وشأنه حتى يتحدث هو نفسه ويقول كل شيء. لأنه لا يستطيع أن يكتم ما وصله من أخبار إلى ما لا نهاية.

وبدا لها أن تعد له القهوة، عسى أن تطلق لسانه فيتحدث وقامت فأعدت قهوة مما بقي في أسفل الحقة، وأرتها إياه قائلة:

— انظر إلى حقة القهوة؟ إنها لا تكفي لصباح الغد.

فأجابها الزوج وقد استبشر برجوع زوجه إلى الطريق المستقيم :

— غدا يفعل الله ما يشاء — لعلي أجد من أرسل معه ليشتري لنا،

وفعلا فإن القهوة أعادت إلى الزوج الشيخ نشاطه، وخففت عنه ضيقه وسهلت عليه الحديث، فقال مخاطباً زوجته العجوز:

— أتدرين ماذا فعل ابنك؟

فأجابت بدهشة وذعر سائلة؛ :

— وماذا فعل؟

فقال بأسى:

— إنه تزوج.

فقالت الزوج وقد أذهلها الخبر:

— تزوج؟ بمن تزوج؟

— تزوج بفرنسية،

— بفرنسية ؟ يا الاهي !

— نعم، تزوج بفرنسية، ونحن هنا ننتظر رجوعه منذ سنة وأسبوعين .

— يا الاهي تزوج بفرنسية وترك خطيبته وابنة عمه . ترك سعدية أجمل الفتيات ! يا لعقوقه ...

متمتمة : « لماذا يا ولدي الحقت بنا هذا العار ولم ترع حرمة شيبنا وحناننا ودموعنا عليك ؟ »

الجزائر في 9 جانفي 1971

# المغترب

— اركب!

— لـكن يا سيـدي هذا المطعم لي وأنا صاحبـه...

— قلت لك اركب ولا تتـكلم!

— لـكن... لم أعمل شيئاً مخالفاً للقانون، لم اقترف ذنباً.

— يـكفي من الـكلام، عندما تصل إلى المركز اشرح للمحافظ حقيقتك.

— أرجوك لحظة، أوصي فيها على المحل أحد مواطنـي.

— إنك أكثرت الترجي... اركب وإلا اضطررت لاستعمال العنف.

ركب «المولود» سيارة الشرطة مع غيره من العمال الجزائريين وسيقوا إلى المركز بدون أن يعرفوا السبب.

وفي الواقع لم يـكن أحد من أولئك العمال يستغرب هذه الحادثة، فهم قد تعودوا على ذلك، منذ أن وطئت أقدامهم فرنسا.

أما «المولود» فقـد كان في أشد الحيرة والاضطراب، فهو يعتبر نفسه ليس كبقية العمال، إنه تاجر، صاحب مطعم رقم 118

شارع «قابريال بيري» في «سانت وان»، من ضواحي باريس – فلو كان عاملا كغيره من العمال لهان الأمر، ولـكنه ليس كالاخرين لم ترى ماذا سيقع لمحله أثناء تغيبـه هذا؟ إنه لم يستطع حتى توصية من يخلفـه في تسييره. بل لم تمنح له الفرصـة حتى لغلقـه! وهذا غير معقول... غير معقول! وخاطب رفاقه في السيارة:

– «غير معقول، غير معقول أن أساق هـكذا! أنا تاجر، صاحب مطعم... غير معقول أن أعامل هـكذا... غير معقول! لو وقع حادث في المحـل أثناء غيابي ترى من المسؤول؟ أنا هو المسؤول طبعاً. صاحب المحـل هو المسؤول دائمـاً...»

نظر إليه أحد العمال مليا وبسمة ساخرة تعلو شفتيه، ولـكنه لم يجبه بـكلمة لا هو ولا غيره، ولم يـكن المولود ينتظر من أحد جواباً، فهو لم يـكن مثلهم: مجرد عامل بسيط، إنه تاجر، صاحب مطعم 118 شارع قابريال بيري – من ذا من عمال الناحية لا يعرف «مطعم 118»؟ من ذا لم يأكل كسـكسيه اللذيذ؟ بل من ذا لم يغازل يوماً، ولو في خياله، الفتاة العاملـة «كوليت»؟

كان هذا المطعم مشهورا بثـلاثة: «كوليت» العاملـة الفرنسية اللطيفـة، والمولود صاحب المطعم ذو القبعة البوهيمية والمنديل الحريري الأحمر الذي لا يفارق عنقـه، والـكسـكسي اللذيذ، وكانت تجارته رابحـة وقصاده كثيرين ليس من العمال الجزائريين فقط بل حتى من الأجانب هواة الـكسـكسي...

واصلت السيارة السوداء طريقها إلى المركز تشقـه بصفارتها شقاً، وواصـل المولود احتجاجه وتذمره من هذه المعاملـة السيئة

التي سوّي فيها بين تاجر مشهور وعمال نكرات:

ــ «أقاد هكذا إلى مركز الشرطة بدون سبب... غير منطقي، غير معقول... جمع الناس بهذه الصورة وحشرهم في سيارة سوداء عرفناه أيام الثورة... أما الآن فما السبب؟ غير معقول... غير معقول... البارحة فقط تناول الطعام عندي المفتش «راوول»... البارحة فقط! لم يسمحوا لي حتى بأن أوصي على المحل. قال لي: «اركب ولا تتكلم»..! شرطي بسيط، قال لي هذا... أرأيتم أيها الإخوة! شرطي بسيط يأمر صاحب محل بهذا الأسلوب! مع أني لم أعمل شيئاً، ولم يقع في محلي ما يستحق هذه المعاملة... لم يعلم أحد بسبب مجيء الشرطة ولا بوقت مجيئها... وقفت السيارة أمام الباب، ونزلت الشرطة شاهرة في وجوهنا أسلحتها وقالت: «الجميع إلى السيارة»!

كان من حقهم أن يسألوا عن هوية الناس، أن يطلبوا أوراق التعريف ويأخذوا المشبوه في أمره... أما أن يحشروا الناس هكذا، حشرا، في سيارتهم فغير معقول وغير منطقي. الثورة انتهت منذ سنوات، والجزائر مستقلة... كل الناس يعرفون هذا، فلماذا جمع الناس بهذه الطريقة المتغطرسة؟ إن لم يريدوا رؤية الجزائريين في أرضهم كان عليهم أن يتفاهموا مع حكومتنا، لا أن يجمعونا هكذا كالأغنام، كالمجرمين. غير معقول! غير معقول أن يستمر حقدهم علينا إلى هذا الحد، والثورة المسلحة قد انتهت منذ سنوات...»

* * *

وصلت السيارة إلى المركز، وأنزل العمال منها بأعقاب البندقيات. وحشروا في إحدى الممرات حشرا، حيث لم يكونوا فيه وحدهم، فقد كانت هناك مجموعة أخرى من العمال جيء بهم من مختلف الضواحي، وكانت ظروف إيقافهم ونقلهم إلى المركز متماثلة: تقف السيارة أمام المقهى وتحاصر الشرطة من فيها، ثم تأمرهم بالركوب وتقودهم إلى المركز حيث تفرغهم في ذلك الممر الطويل الذي يشبه الدهليز... وهناك ينتظرون الساعات الطويلة قبل أن يشرع في التحقيق معهم، وكانوا أحياناً يقضون الليلة والليلتين ثم يطلق سراحهم، بدون أن يتعرضوا لأي تحقيق، وغاية هذه العمليات هي غالباً إشعار الجزائريين بأنهم غير مرغوب فيهم، على الأقل من طرف الشرطة...

كان المولود واقفاً إلى جانب شخص جيء به إلى هناك قبله، تظهر عليه علائم الترف فخاطبه قائلا:

— «أرأيت؟ إنهم لا يفرقون بين عامل وعاطل وتاجر! لم يسمحوا لي حتى بغلق المحل. حاولت عبثاً أن أفهمهم أنه لا يمكنني أن أدع المحل وحده...! إنهم يسلكون معنا سلوكهم إزاء المجرمين، بيد أن الجزائر مستقلة منذ سنوات، والحرب بيننا وبينهم قد انتهت... ومع ذلك فالجزائري هو الجزائري في نظرهم... فكر يا أخي، وصلوا عند الساعة الثامنة في الوقت الذي كان فيه المحل مكتضاً بالناس، أغلبهم لم يتناول طعام العشاء... وساقونا إلى هنا كالبقر. هل نستطيع أن نحتج أو نعمل شيئاً؟ كلا. يفعلون بنا ما يشاؤون، نحن كالبقر تماماً. في الواقع لو كنت عاملا كسائر العمال أو عاطلا لهان الأمر، ولكني تاجر يا أخي،

مسؤول عن محل يشتمل على مقهى ومطعم وغرف للنوم. وأنا وحدي. هل تستطيع «كوليت» أن تقوم بكل شيء، في غيابي؟ كلا. ثم انها ليست زوجتي، هي عاملة عندي فقط، صحيح انها ثقة، منذ اكتريت هذا المحل وهي معي، عرفتها وأنا عامل بمعامل «سيطروين». ولكنها لا تستطيع أن تعمل شيئاً في غيابي، امرأة عاملة لا تستطيع تولي مسؤولية تسيير محل...» لم ينبس الرجل بكلمة فسكت المولود قليلا ثم استأنف قائلا: «أعرف إنهم سيطلقون سراحي بعد أن يطلعوا على هويتي. ولكن... ولكن الطريقة التي ساقوني بها منافية لكل القوانين، لكل القوانين! أنا تاجر يا أخي، ومحلي يعرفه العام والخاص، حتى الشرطة تعرفه. من بين زبائني مفتش شرطة اسمه راوول. يأتي دائماً للمطعم لتناول طعام العشاء، أو الغداء هو ورفاقه. ومع ذلك ساقوني هكذا كبقية الناس. أليس هذا مثيرا؟ لم يروا لا أوراقي ولا أي شيء... أقضي الليلة هنا أو في مكان آخر لا يهم. ولكن المحل، المحل تركته وحده، ماذا تستطيع أن تفعل «كوليت» في غيابي؟ ثم ما هو أهم: المسؤولية! لو وقع في غيابي حادث في المحل، ترى من المسؤول عن ذلك؟ هو أنا طبعاً، أنا المسؤول، لأني أنا صاحب المحل «كوليت» عاملة ليست مسؤولة، ليست زوجتي على كل حال. كثير من الزبائن يظنونها شريكتي لأنها تتولى الصندوق المالي ولكنها في الواقع عاملة فقط! ولّيتها المسائل المالية لأنها تتقن الحساب، ولأنها ثقة، عرفتها منذ سنوات. مسألة الثقة هي ثقة لا شك في ذلك. صدقني يا أخي، انني أعرف من أثق فيه ومن لا أثق...

* * *

– سيدي المحافظ أؤكد لك...

– أوراقك!

– قلت لك يا سيدي المحافظ تركتها بدرج المكتب بالمحل.

– ماذا تعمل؟

– أنا. سيدي المحافظ، صاحب مقهى. مطعم. فندق... أنا علالي المولود صاحب محل 118 شارع «قابريال بيري»، سانت وان. المفتش راوول وزملاؤه يعرفونني جيد المعرفة يأتون لتناول الكسكسي عندي. تستطيع أنت أيضاً أن تأتي سيدي المحافظ لتناول الكسكسي. تستطيع أن تأتي متى شئت. ستجد لدينا كل حفاوة. يجب أن تأتي إلى 118 سيدي المحافظ...

– متى دخلت إلى فرنسا؟

– متى دخلت إلى فرنسا... منذ إحدى عشرة سنة. دخلت في سنة 1959.

– أين كنت تشتغل؟

– في معامل «سيطروين» سيدي المحافظ.

– أعندك كشوف الأجرة؟

– لست أدري إن احتفظت بها... لا شك أن هناك كشوفاً باقية في اوراقي بالبيت.

– منذ متى وأنت عاطل عن العمل؟

– لكن يا سيدي المحافظ، لست بطالا، أنا أعمل، أنا صاحب محل كما قلت لك.

– متى توقفت عن العمل في معامل «سيطروان»؟

– منذ سنة تقريباً.

ـ ومن أين جئت بالأموال التي اشتريت بها مقهى ومطعم وفندق؟

ـ لم أشتر هذا المحل، اكتريته فقط.

ـ من أين جاءتك الأموال لاكتراء محل مثل هذا؟

ـ من العمل سيدي المحافظ، من عرق الجبين. اقتصدت طوال السنوات الماضية لأستطيع اكتراء محل.

ـ أنا لي عشرون سنة في الشرطة ولم أستطع توفير كل هذه الأموال؟

ـ لكن سيدي المحافظ، أنت لا تستطيع أكل الخبز والبطاطس سنوات، هاها...

ـ لست أضحك معك. لا شك أنك سرقت هذه الأموال وإلا فأجرتك كلها لا تمكنك من اكتراء محل كالذي تتحدث عنه!

ـ سيدي المحافظ، أؤكد لك، ان المال الذي اكتريت به المحل من عرق جبيني كيف أسرق أنا؟ أؤكد لك سيدي المحافظ انني عامل نظيف!

ـ هل لديك ما يثبت أقوالك؟

ـ إسأل عني رئيس قسم الدهن في معامل «سيطروين» سوف يجيبك بأني كنت من العمال المتفانين في عملهم.

ـ هذا كلام لا معنى له. فإن لم يكن عندك ما يثبت اكتساب الأموال التي اكتريت بها المحل فإنك سارق.

ـ أؤكد لك سيدي المحافظ، لم أسرق أحدا في حياتي. وإذا أعطيتني فرصة فسوف آتيك بكل الحجج التي تثبت صحة كلامي.

ـ طيب، عندما تصل إلى الجزائر هيء حججك للمطالبة بحقك.

ـ الجزائر سيدي المحافظ؟... ولكن... محلي... أوراقي، حساباتي أموالي...

ـ هيا اغرب من وجهي... يا شرطي!... الذي بعده...

* * *

واصل المحافظ استنطاق العمال الآخرين بنفس الطريقة ونفس التهكم أما المولود فقد نزلت عليه كلمة الرجوع إلى الجزائر نزول الصاعقة. إن كل السنوات التي قضاها بفرنسا كان وراءها هذا الحلم المتمثل في اكتراء محل وامتهان التجارة، ولما تحقق الحلم وصار تاجرا وجد نفسه أمام هاوية!

كم عد أيامه وساعات تلك الأيام وهو مغمور بدهن السيارات وبغازاته السامة! كم بات على الطوى، وكم حمل نفسه ما لا تطيق وألزمها من ظروف قاسية ليوفر من أجرة يومه ما يريحه في غده! فرح رفاقه من العمال بعطلهم الأسبوعية ولهوا ما وجدوا إلى اللهو سبيلا، وكبح هو نفسه عن كل جنوح إلى اللهو وتبذير المال، أكل رفاقه وشربوا ما حلا لهم، وألزم نفسه بأن تقتنع بالضروري من العيش. والساتر من الملبس. وكان راضياً بحياته تلك، مغتبطاً بها حتى جاء اليوم الذي تيسر له فيه اكتراء هذا المحل... وأصبح تاجرا حرا، وأصبحت حياته ذات محتوى، وقد حقق ما كان يصبو له، ولكنه نسي شيئاً واحدا: وهو أنه جزائري يحيا في أرض ليست أرضه، وتحت حكم سلطة لا تعرف معنى لقانون أو مبدإ إذا كان الأمر يتعلق بالجزائريين.

خاطب المولود شخصاً كان إلى جانبه قائلا في تذمر يائس:

ـ أعود إلى الجزائر هكذا... بدون أن أضبط شؤوني وأبيع المحل، وبدون أن آخذ حتى ملابسي ودراهمي... أليس هذا هو الظلم الأحمر! إنني تاجر لست لصاً ولا عاطلا عن العمل، ومع ذلك أطرد بهذه الصورة... أعود إلى الجزائر وأنا لا أملك حتى ثمن خبزة. أصبح أتسول في الطرقات، وأموالي أتركها للضياع! أحد عشر عاماً من الأعمال المرهقة والتقتير لأصبح متسولا! أليس هذا هو المنكر بعينه! يا حسرتاه! لو ظننت أني سوف أطرد بهذه الصورة لما فكرت في عمل ولا في تجارة، بل لكنت قمت بكل الأفعال الشنيعة. ما الفرق بيني وبين أي مجرم، ما الفرق؟ قل لي بالله! جمعت الثمن الذي اكتريت به المحل فرنكاً فرنكاً... والنتيجة ماذا؟ ذهب نهر «السين» بما قترته على نفسي! يا إلهي كيف أفعل بنفسي عندما أنزل بالجزائر؟ ماذا أقول للناس؟ من يصدق قصتي؟ يا إلهي!...

واستمر المولود في أحاديثه وتحسراته المحمومة متنقلا من شخص إلى آخر حاكياً قصته، قصة السنوات الطويلة التي أخذت منه جهده وشبابه مقابل أثمان لم يستطع في النهاية أن ينال منها إلا الحرمان... ولم يكن يصدق أنه سيغادر فرنسا حقاً، وبتلك الصّورة، إلى أن أركبَ القطار المتجه إلى مرسيليا من الغد، وعندئذ أدرك أن مأساته لم تكن كابوساً عابرا وإنما هي حقيقة مرة، عليه أن يجابهها أحب أم كره، وفتش في أعماق عينيه عن قطرات دموع ليسيلها حزناً على هذه النهاية، ولكن عينيه كانتا يابستين منذ زمان بعيد، منذ أن قطع كل رسائله وأخباره عن

أهلـه بالجزائر منذ أن راود خياله حلـم التجارة والاستقرار بباريس...
وقال في نفسـه:

حتى البـكاء لا أستطيع أن أبـكي، فقـدت في لحظـة كل شيء، فقـدت السرور وفقـدت الحزن أتألم تألماً يائساً، لا ندم ولا حزن فيه – يا إلهي! كيف أقابل معارفي وأهلـي؟ أعود إلى وطنـي عودة المجرم المطرود! لماذا كل هذا يا إلهي؟ لماذا...

وتحرك القطار المتجه إلى مرسيليًا يحمل عشرات الجزائريين المطرودين من فرنسـا وكـُلّ كانت تتراآى له من خلال المناظر المتلاحقـة التـي تقـدمهـا نوافذ القطار ذكرياته وشبابه الذي تركه وراءه تحت مداخن المعامل السوداء في مـكان ما بفرنسا!

22 سبتمبر 1971

# الفراغ

كانت اللحظة مرة مؤلمة ، وكانت المفاجأة قاسية عنيفة . وكانت الصرخة رهيبة يائسة عندما راى لأول مرة حقيقته العارية في أبشع صورها ، كما يراها الناس كل يوم، وكما رأوها منذ أكثر من ثلاثين سنة ، وأحس لاول مرة في حياته براحة وهو يفكر في الموت ، وأدرك لأول مرة في حياته السكينة التي تنزل على النفس ، وتغمر كل المشاعر والاحاسيس في اللحظة التي تتقدم إقدام الرجل على الانتحار ! وقال في ذهول وحسرة محدثا نفسه :

- لم أكن أبدا ادري انني بشع الى هذه الدرجة !

كان ليس جميلا ولكنه لم يكن قبيحا الى الحد الذى يتخيله، وكان طويلا نحيفا أسمر اللون شعره حاجباه عيناه فاحمات السواد . اذا تعرض رأسه للشمس تشع من شعره زرقة وكان وجهه مرئياً من أمام جميلا الى حد ما ، وجميلا ان رايته عن قرب ولكنك ان رايته من عل أو من جنب فهو قبيح.

وهو عندما اكتشف قبح صورته هذا ، لاول مرة ، كان راى جزءا ضئيلا جدا من وجهه راى نتوء صدغه وارنبة أنفه وجزءا صغيرا من زاوية فمه. لم ير ذلك في المرآة ، ولكن في شيء آخر على الشاشة !

وانتهى عرض الأحداث الاسبوعية التي كان هو نفسه أحد لقطاتها ولم يستطع انتظار الفيلم وقد كان يشعر بضيق شديد وخشي أن يشعر المتفرجون بقاعة العرض بوجوده بينهم فانسل من القاعة وهو يقول في نفسه :

— كل ما توهمته في الماضي كان ضلالا وكذابا ؟

كان منكسا رأسه ، يمشي في ذهول ، وفي قلبه حسرة، وفي روحه ألم ، كان لا يمشي على الارض ولا في شارع من شوارع مدينة الجزائر الضاحكة بأنوارها . كان يمشي في غروب آماله العذاب التي تبخرت في تلك الليلة . ووصل الى المكان الذى ترك به سيارته ، وذهنه يسير في ماضيه ذلك الطويل الذى امتد خلفه . ركب السيارة وسلك طريقاً تشرف على مدينة الجزائر كلها ، وانطلق انطلاق الرصاصة مع تلك الطريق الكثيرة التعاريج الخطيرة كان يود لسيارته ان ترتطم بأي شيء كان بأي شيء يجعل لحياته الزائفة نهاية ، وأشد ما يكون الا نسان حذراً من الموت عندما يكون مقدما عليه ، لم تصطدم سيارته بأي شيء ، كانت سرعته تلك ، المفرطة ، نوعا من الهروب من نفسه ، ولكن نفسه كانت معه ، كانت هو ! ورأى

مدينـة الجـزائـر تحتـه ، وهـو في طـريقـه منطلقـاً ، رآهـا منحنيـة بـأنـوارهـا الكثيرة اللألاءة على البحـر في حنـو الام وهي تـرضع طفلهـا الصغير : « هذه الانـوار كلهـا زيف ، جميلـة من بعيد ولكنهـا في حقيقتهـا زجـاج وأسـلاك ومـاء، مـادة ... مـادة قـذرة ـ أمـا الحقيقـة فهي مـا لا يـرى . . هـي ذلك البحـر الاسـود الذى لا ارى ما في بطنـه ، أو شيء يشبهـه !

ووصـل الى بيتـه ، كان يسكـن وحده ، لم يكـن متـزوجا، طلق زوجـه منذ ثلاث سنـوات .

دخـل الدار دخـول الغـريب الى مدينـة لا يعـرفهـا ولا يعـرف فيهـا أحدا .

وكان في تلك اللحظـات غـريبـا حقـا ، كان يعـرف الدار ولكنه الليلة دخلهـا لأول مـرة ! الم تنقطـع كل مـا بينـه وبين الـرجـل الآخـر الـزائف الذى يمثلـه كل صلـة منذ الليلـة ؟ لم يعد أبدا ذلك الـرجـل الذى يسـرع في الـرجـوع الى بيتـه مبكـرا . . صـار شخصـا آخـر في نظـره ولكنـه يعـرف الدار أمـر لا يهـم ـ كان في الماضي لا يجـد في داره أحدا فهـو يسكـن وحده ولكنـه كان يدخلهـا مسـرورا، كان يحبهـا . . أمـا الليلـة فهـو ليس فقط لا يجد فيهـا أحدا ولكنـه لا يجد فيهـا حتى الـراحـة التي كانت تمنحهـا ايـاه ، حتى الاحـلام التي كانت تـؤنسـه . فقـد شخصـه الـزائف ليفقـد معـه الـراحـة والمتعـة وكل مـا كان يحببـه في الحيـاة . أليس من الافضـل أحيانـا ان نعيش في الـزيف على ان نحيـا في الحقيقـة التي لا تحببنـا في

الحياة ؟ «هنا كان يجلس ذلك الخيال الزائف الذي يعتقد أنه جميل ! كان يجلس هنا كل صباح وعشية ومساء لتراه الجارة الحسناء ! . .»

« هنا كان ينام ذلك الوهم الغرير . فوق هذا السرير الذى غيره من مكانه منذ ان ابتسمت له الجارة الحسناء (يبتسم ساخرا من نفسه) كان ينظر اليها بشوق وبحنان ، وكان يحس في نفسه كبرياء... لانها كانت تنظر اليه أيضا بامعان وبشيء يشبه الشوق أو الحب وكان المسكين يعتقد اعتقادا عميقا أنها تحبه ! »

« هذه أثوابه الرفيعة التي كان يعتقد أنها تزيد « جماله » رونقا ! المغرور » !

وأحس بارهاق شديد وبملل أشد ، بملل من نفسه ومما يحوط به . وأحس أن فمه نشف من كل ريق فأدار لسانه فيه فبدا له أنه كريه الرائحة وأن طعمه غريب

— كأني شربت عرقي !

واراد ان يبصق فأخرج منديله ، ثم ارجعه الى جيبه بحركة تنم عن غضب :

— لا أبصق في المنديل

وقام فاتجه نحو المرآة ووقف أمامها : «أبصق على هذه الصورة الزائفة . .»

ثم أخذ يدور في القاعة بخطى تائهة ، وعيناه لا تكادان تستقران على مكان حتى تتحولا عنه ، برهة قضاها

في الدوران فأفكاره أيضا كانت تدور ، وذكرياته كذلك كانت تدور ، وآماله أيضا كانت تدور ، كل ما كان في نفسه وما كان يحدق به يدور . صيره سعير الحقيقة الذى اندلع منذ حين في أشد نقط شعوره حساسية يغلي غليان الماء . تهالك على مقعد مجلد ، ، وكان يرى خيوطا سوداء أفقية متتالية تنزل كالستار :

ـ لو كانت الدنيا كلها ظلام لما راى قبح صورتي أحد ولما سخر مني أحد ، ولما سخرت روحي من قبح جسمي ـ كنت عشت سعيدا ، أعطي لذاتي الصورة التي أقدرها واضفي عليها الجمال الذى أبغي ولكن النور . . ما أفظعه ! »

قام واتجه مرة أخرى نحو المرآة ، وكانت التفلة التي تفلها منذ حين على صورته في المرآة ، سالت كغرة الفرس فأوحت اليه بسلسلة من الخواطر : « كانت هذه التفلة مستديرة الشكل وهاهي ذي الان استطالت واحدودبت. ان الزمان هو القاسي لو لم يمض لبقيت مستديرة ـ هو الذي أجبرها على النزول فالتحدب . »

« كان وجهي في الماضي مستديرا ولم تكن به هذه النتوءات ، وكان طول أنفي هذا البشع لا يظهر الى هذا الحد »

ثم التمعت في نفسه فكرة مضحكة وهو يرى صورته على المرآة الى جانب التفلة فضحك ساخرا من نفسه :

ـ سواء كان مستديرا أو مستطيلا ، ذا نتوءات أو مستويا فأصله قبيح ، فهذه التفلة مهما كان شكلها فهي تفلة ! »

ثم حاول ان يرى جزءا من وجهه ، جزءا فقط ، مثل الجزء الذى راه على الشاشة فلم يستطع ، لان اتجاه نظره نحو الصورة التي على المرآة جعله يرى عينيه الاثنتين وعيناه جميلتان ، وهو كان يرد ان يرى جزءا فقط من إحدى عينيه وهما تنظران الى مكان آخر ، مثلما رآه على الشاشة .

ثم أخذ مرآة صغيرة كانت على المنضدة ، وبها استطاع ان يرى على مرآة الحائط كل ما أراد من أجزاء وجهه ، لكن الجزء الوحيد الذى لم يره كما ينبغي هو الجزء البشع الذى رآه على الشاشة !

وكأن هذا العبث الذى أخذ في تعاطيه منذ حين سلاه وخفف من نقمته على صورته البشعة ها هي ذي بسمة أخذت ترتسم على شفتيه ، أهو الان يسخر من نفسه كما يفعل منذ ان دخل الحجرة ؟ أم شيء آخر انبعث من منابع شعوره فأنساه الى حين التفكير في قبح صورته ؟ انه يرى على مرآة الحائط نصف صورته المنعكسة على المرآة الصغيرة التي يمسكها بيده :

– هذا النصف من وجهي هو الذي كنت اديره الى « سامية » كنت أعتقد أنه النصف الجميل الجذاب ! كم أنا طفل ! النصف الجميل هو النصف القبيح . كلا النصفين جميل على المرآة وقبيح في الحقيقة .

لكن ترى ما كان يعجب سامية في ؟ كل كلماتها الي فيها عطر وحب ، وكل نظراتها الي فيها أحلام وهيام ،

لم يكـن في سلـوكهـا مـا ينـم عن استقـذارهـا لصـورتي . أم أنـا واهم ، ضلالي عن ادراك حقيقتي أضلني عن فهـم ما تخفـي الكلمـات المعطـرة من استخفـاف ، ومـا يغطي النظـرات الحالمـة من تهكـم ؟ غدا سأتحققُ من كل شيء .

وضع المـرآة الصغيرة في مكـانهـا على المنضدة ، ثم فتح الخـزانة فأخرج محفظة مكتضة بالصور ، صوره في مختلف أطوار حياتـه. وارتمى فوق السريـر بأثوابه وبحذائـه . لم ينزع عنه شيئاً ، كان الحر شديدا ولكنه لم يشعر به وغاص في صوره ، في ذكريات المرتسمة على اوراق ، في أطوار حيـاته. لم تبق منهـا الا ظلال شاحبـة وأضواء خافتة على ورق. غاص في ماضيه . كانت الدموع تملأ قلبه ولكنهـا لم تستطع الـوصول الى عينيه ، منعهـا اليـأس من الحـركة وأحبسهـا حيث هي في منـابعهـا الأصيلـة . وكان هـو يحس بهذه الدمـوع تسيـل ، ولكـن في حنايا شعـوره .

* * *

مـر بجمـاعـة من الفتيـات يغتسلـن في واد ماؤه من لجين ، تـرتعش في سطحـه حباحب من نـور تسللت من بين أغصان أشجـار الـورد الكثيفـة المتشابكـة الممتدة على طـول حفافي الـوادي .

لم يكـن أبدا يعتـزم المـرور بهـذا الـوادى ولكن الصدفة المحظة قادته اليه واذ راى الفتيات خجـل واختفى تحت وردة كبيرة جدا في حجم مظلـة من مظـلات الصيـف المبثوثـة على الشـواطيء كانت هذه الـوردة صفـراء كالذهب وخيـل

اليـه ان الفتيات يعتقـدن ابتعـاده عن المكان ، لم يكـن يـريد النيل من أعراضهن باختفائه قريباً منهن ، ولكن استحى ان يمضي تحت نظرهن ، كن جميـلات كتلك الـورود المتناجيـة فـوق رؤوسهن. صـافيـات البشـرة كذلك الماء الجاري بين ايديهـن وارجلهن وكن كلهـن في سن حيث كل جـزء من اجـزاء الفتـاة يمتلىء حياة ونـداء . راى كـل منا لا تمتد العيـن الى رؤيتـه من فتـاة ، ولكن في بـراءة وطهـر وقداسـة . وحـول بصـره عنهن الى الماء الجـاري بين ايديهن . . ما أجملـه ! لقد أعطته صفحـة الماء صورة كأروع وأفتن ما تكـون عليـه صور الجمـال .

« عجبـا ! كأني أحلـم ، اذ اكتشفت تلك الصـورة البشعـة ! ها هي ذي صورتي جميلـة ، جميلـة كمـا عـرفتهـا دائمـا . لا شك اني كنت أحلم

وسمع الفتيات يتحدثن عنه وهن يعتقدن مضيه، فأكدن لديه ما أحب دائماً أن يتأكد منـه.

فقالت إحداهـن:

«إنـه جميل كـالشمـس»

وقـالت الأخرى:

»هو أجمل من القمر

وقالـت الثـالثـة:

«جميل كالحلـم الجميـل»

وقالت الرابعـة:

جميـل كـالسرور»

وقالت الخامسة:

جميل كالسعادة»

وقالت السادسة:

«هو ملاك»

وقالت السابعة:

«إنه إلاه!»

مهما أتيح للإنسان أن يتصور الجمال له أو للناس، فلن يتصور أن يكون إلاها، ولكن الفتاة السابعة قالت «إنه إلاه»!

وفكر في نفسه:

«لو قالت واحدة منهن فقط انني جميل لشككت في حكمها، ولو قالت الفتيات السبع جميعهن أمامي «إنني جميل» لما وثقت من صدقهن، أما وقد قلن ذلك وهن لا يرينني بل يعتقدن ابتعادي عن هذا الوادي فإني أصدقهن وأصدق هذا الماء الذي تشع فوقه صورتي، إنني جميل حقاً وإني أشعر بالراحة المريحة تغمر كل ذرات جسمي وشعوري، بعد الحزن اليائس الذي سببه لي ذلك الحلم البشع، ذلك الكابوس الذي أراني صورة بشعة لوجهي هذا الجميل الذي اتفقت على تناسق أجزائه وتجانس ملامحه سبع فتيات وصفحة هذا اللجين الجاري بين يدي!

وفجأة استحالت صورة الوادي ذي الورود إلى بركة كبيرة تطوقها جبال شاهقة ووجد نفسه جالساً فوق حجر كبير وسط البركة، لم يدر كيف جاء إلى هناك ولا خطر له حتى التساؤل عن ذلك، وكان عارياً.

كان ماء البركة المحتضن للحجر أخضر خضرة يشع منها سواد، وكان هو ينظر في ذهول إلى ماء البركة، لم يكن يفكر في أي شيء لا في الفتيات الجميلات ولا في وادي الورود ولا في هذه البركة التي تطوقها الجبال حيث هو الآن، كانت اللحظات التي يحيا فيها ليست من الزمن ومع أنه لم يكن ميتاً، وإنما كان ذاهلا. ولو شعر بشيء حوله أو بشيء في نفسه لاستأنف الزمان سيره حوله وفي نفسه، ولمر مسرعاً كما تعود أن يمر دائماً، ولكن هذا الذهول أراحه من نفسه ومن التفكير في صورته أهي جميلة أم قبيحة.

لحظات لا تقاس ولا تعد قضاها فوق الحجر بالبركة المطوقة ثم من بعد أخذ يحس كأن ضباباً بدأ ينزل على البركة حتى غمرها، وحاول أن يقوم وإذا بيد تمتد إلى يده فتقبض عليها بلطف كأنها تحاول إسعافه، وبصوت يصل إلى أعماقه هامساً في عذوبة ورقة يقول له:

«لا تفكر في صورتك فكر في صور عملك» فاستيقظ من ذهوله وأفاق من نومه. كان نائماً وكان يحلم. وها هو الآن عاد إلى اليقظة من جديد. ها هو فوق السرير متكئاً يظهر كالكرسي المحطم!

كانت الساعة الرابعة صباحاً، وكان الفصل صيفاً، ولأول مرة منذ أن سكن هذه الدار قام في مثل هذه الساعة المبكرة، ترى ماذا سيفعل الآن؟ إنه ينظر إلى السقف، ها هو انقلب وامتد على بطنه بعنف، كأن السقف لم يرقه فأحب أن لا يبقى بين بصره

وبين الأشياء فضاء، أو لعله يحاول أن ينام مرة أخرى فالحلم الذي رآه قد يحبب إليه النوم الدائم، لا، لا يفكر في النوم، إنه يفكر في اليقظة، ها هو قام، أين يريد أن يذهب؟ وماذا يريد أن يفعل؟ المرآة ما تزال في مكانها وأثر التفلة يبدو جلياً عليها، بالرغم من أن النافذة مغلقة، ها هو يتجه إلى النافذة:

«لولا هذه النافذة التي أفتحها الآن لاستطعت أن أتصور نفسي في أي مكان من العالم شئت، ولكن النافذة ستقول لي بعدَ لحظات، أنك بالقبة، بالجزائر، كما قالت لي منذ أن سكنت هذه الدار، ومحتم علي فتحها... افتحها لأرى كل ما أعرفه، ما الفائدة في أن أرى ما أعرف؟ أضيع الزمن المحدد لعمري في المناظر المعروفة، وأضيع عمري في مساحة ضيقة لا تعطيني إلا الملل ولا تريني إلا ما يدل على رتابة الحياة، ولكن يجب أن أفتح النافذة على كل حال.»

النافذة تطل على جزء من الروضة المحدقة بالدار، وبهذا الجزء شجرة ورد وكرمة وبعض النباتات، ومن هذه النافذة يرى جارته الحسناء سامية التي تسكن في الجهة المقابلة، وكانت وردات صغيرة محدقة إلى السماء تناجيها باسمة راضية بعمرها القصير ومطمئنة إلى تفاهة المصير، مستعدة لتقبل كل ما يأتيها من تلك السماء التي تحدق إليها، من ندى منعش وحر قاتل:

- «لو كنت مثل هذه الوردات لما ابتسمت للسماء» وما كادت تنتهي الجملة في نفسه حتى أخذت في محوها الجملة الموالية: ولكن لها أن تبتسم ما دامت أنها لا تشعر!...

وضع مرفقيه على شرفة النافذة، وكان يشعر بإرهاق شديد وبملل لا حد له، وكانت الوردات تبتسم ابتساماً لا ينتهي للأشعة المقبلة في خجل من بين شاهق العمارات وباسق الشجرات فقال في نفسه مخاطباً الوردات وهو ينظر إليهـا وإلى خطوط الأشعة الرقيقة المقبلة نحوها:

ـ «ستقبلك بحنان ورفق ثم ستحرقك في النهاية كالحياة»

كانت أفكاره مضطربة متنقلة من موضوع إلى غيره، وكانت نظراته أيضاً مضطربة لا تستقر على مكان حتى تتحول عنه إلى غيره، وكانت المدينة ما تزال نائمة إلا قلة من البيوت أخذت تتثاءب!

ـ «نائمون.. وأنا أيقظني قبحي، لكني نمت كثيرا نمت أكثر من ثلاثين سنة لاستيقظ أبدا، ليتني لم أفق، لكن.. لكن لست وحدي القبيح، لست وحدي...»

أين كانت هذه الفكرة التي قامت في نفسه الآن، الآن فقط لتزيح كل غشاوة عن بصره وتذيب ما كان يغلف قلبه من ران؟ ما أصغر الإنسان وما أعظم الكلمة!

زالت عن وجهه في لحظة تلك الدكنة الحزينة وعاد إليه الانطلاق من جديد فابتسم وابتعد عن النافدة وذهب يغتسل ويحلق لحيته ليصير جميلا في أعين الناس ليحيا للناس لينام مرة أخرى. ليته لا يفيق!

الجزائر 4 أكتوبر 1963

# الاغنية اللعينة

كانت الساعة السابعة صباحاً. ولكن الحر قد استيقظ في ذلك اليوم مبكرا فأيقظ الناس معه.

وكانت إحدى الجارات تغني «أنا الوحدانية».. ففكر عبد الرحيم في أن يتزوج أن يدع حياته الفردية تنطفىء، ويستأنف حياة أخرى جديدة، حياة مشتركة. صحيح انه سوف يضحي بحزن عزلته الأليف الحبيب، وسوف يضحي بتأملاته وتخيلاته التي تجعل من سكون بيته زورقاً من زجاج، سابحاً في بحر من نور وضباب، ومن صمته حلماً تبتسم أشعته وراء آفاق بعيدة. سوف يضحي أيضاً بذلك الملل من نفسه المألوف لديه، وبذلك القلق الذي لا تستقر حياته بدونه.

إذا تزوج فلن يعود للدموع مكان في عينيه، تأثرا من جملة موسيقية أو قطعة شعرية أو مشهد ما...

وإذا تزوج فسوف يفقد كل ما منحته العزوبة من حرية في بيته. لن يحادث (الغلاية) ولا فنجان القهوة. لن يشتم أواني

الطعام الملوثة التي عليه أن ينظفها. سيزول من قلبه كل حقد على القدر والمقلاة ، لن يكون صديقاً لآنية وعدوا لأخرى ولن تعود لأمتعته وأوانيه شخصيتها المستقلة...

عليه أن يستعد إذن ليخلق خلقاً جديدا لاستقبال تلك الزوج الرؤوم، التي تختفي في بعد ما، والتي لا يعرف من صورتها إلا الخطوط العامة التي تصلح لرسم أي امرأة.

وانتهت الأغنية، وسكتت الجارة، وانتهت أفكار عبد الرحيم في موضوع الزواج إلى هذه الفكرة: «الزواج أغنية»:

فتهلل وجهه لهذا التشبيه الذي وجده للزواج ، لكن ما لبث أن زال ذلك التهلل وأعقبه شحوب وهو يحدث نفسه:

– «أجمل الأغاني يمجها السمع إذا أعيدت مرتين أو ثلاثاً فكيف بحياة كاملة»

كان جالساً بحديقة الدار فقام واتجه إلى الشقة التي بها «الفونوغراف» والأسطوانات وأخذت أصابعه تلمس الأسطوانات عابثة، ثم تنهد متمتماً:

– الزواج اسطوانة عذراء صالحة لتسجيل أي أغنية فالأغاني هي التي تختلف...

ترك الاسطوانات وعاد إلى مجلسه الأول بصورة آلية، وأطرق مفكرا:

– يجب أن أتزوج على كل حال، يجب أن أتعدد...

وكأن لفظة التعدد وجهتها أجهزة خفية فاخترقت أمواجها الجدران ووصلت إلى قلب الجارة فصاحت من جديد كأنها

تحتج على كل من يفكر في الزواج:
(أنا الوحدانية، وأنا قليلة الوالي...):

ـ «عجيب أمر هاته المرأة التي لا تفتأ تردد هذه الأغنية السخيفة!

بيد ان حكمه السريع على ذوق المرأة جعله يصحح رأيه لا شعورياً، إذ أردف متمتماً في ندم:

ـ «لعلها فقدت زوجها أثناء الثورة، أو حبيباً عزيزا؟ أو لعلها لم تتزوج بعد ولم يخطبها أحد فوجدت في هذه الأغنية احتجاجا غريزياً على حظها؟ من يدري... فقلب المرأة يتسع لأحزان الأرض وأفراحها، دون أن يمس بسلوكها الظاهري.

وأخذ كتاباً فوق طاولة صغيرة إلى جانبه كان منذ أيام هناك، فقلب أوراقه لحظات ثم قال في نفسه:

ـ «آنا كارنين»، اسم امرأة أيضاً: المرأة في كل مكان، في الكتب وفي الحياة. لا بد من المرأة لكتابة قصة ولا بد من المرأة لحياة حياة...

وبغتة سكتت أفكاره في ضميره، وتوقفت أصابعه عن العبث بأوراق الكتاب وهو يرى يدي امرأة تمسكان بمحبس أزهار وتضعانه في تؤدة وحذر فوق الحائط الفاصل بين داره ودارها ثم اختفت اليدان، وبقي محبس الأزهار الصغير فوق الحائط وحده كأنه يبتسم له أو يحييه! وتعجب عبد الرحيم أن يوضع المحبس هناك! وتمر لحظات قصيرة وإذا باليدين الناعمتين تظهران بمحبس ثان وتضعانه برفق إلى جانب الأول.

وتختفي اليدان من جديد، وينتظر عبد الرحيم أن تعودا بمحبس ثالث ولكن اللحظات تمر واليدان لا تظهران. ويحاول أن يصغي بكل حواسه لعل صاحبة اليدين بصدد غسل فناء الدار فاضطرت لوضع محبسي الأزهار هناك؟ لكن الصمت كان كاملا والغناء انقطع قبل أن تبوز اليدان بوقت.

وخطرت في نفسه خاطرة ابتسم لها وزالت دهشته الممزوجة بالسرور والخشية:

ـ «إنها تحس باختناق وراء هذه الجدران حتى ظننت أن زهورها قد تختنق هي أيضاً فرفعتها إلى هناك حيث الهواء والشمس!.

ولفظة الشمس بعثت في نفسه فكرة:

ـ «لو كانت المرأة شمساً لأحببتها متى شئت وتركتها متى أردت، ولما فكرت فيها بالليل أو بالنهار، فلتشع على أية جهة من الدنيا شاءت، ولكنت أنام ليلي ناعم البال أو أن سهرت فأكتفي بما ينعكس من أشعتها على القمر فأرشف من تلك الأشعة المحتشمة، ولكن لسوء الحظ المرأة ليست شمساً...

ولم تنته الجملة في نفسه حتى بدا جزء من رأس المرأة خاف الحائط ثم اختفى فعاودته دهشته تلك الممزوجة بالسرور والخشية:

ـ إنها تود شيئاً، إن محبسي الأزهار وضعا فوق الحائط لغاية... غاية منبعها قلب هذه الفتاة المتألمة من وحدتها، لكن بأي ذريعة اكتشف حقيقة ما تبغي؟

والذريعة كانت آلة «الفونوغراف» فجلبها مع بعض الأسطوانات.. وأخذ عبد الوهاب ينوح بأعلى ما في قدرة الآلة:

«طول عمري عايش لوحدي؟ فريد وراض بحالي».

ـ «هكذا ستفهم، وإن لم تفهم فسأعيد الأسطوانة حتى تسمع وتفهم، وأفهم أنا ما وراء زهور المحبسين من زهور...

لكن ترداد كلمات الأغنية على مسمعه وضع بينه وبين العالم الخارجي سدا من الضباب النفسي فاستحالت الحديقة التي يجلس فيها والدور المحيطة بداره إلى بركة من ضباب واستحالت ذاته أيضاً إلى ضباب، ولم يبق هناك إلا أفكاره... أفكاره الملحدة والمؤمنة الفاسقة والطاهرة، المحزنة والمسرة، أفكاره كلها جميعها سابحة في بركة الضباب:

ـ إن الرضا نوع من التجمد من الموت، لن أرضى بحالي ووحدتي، إن كان الله غير الكون وغير نفسي وواحدا ورضي بغيريته ووحدانيته فما أبعدني عن الاطمئنان إلى إله صنعته أوهام القرون. إلهي الذي أعبده وأقدسه وأحبه هو الذي لا يستعبد ضميري، هو الذي تجمعني به رابطة تشبه ما بين عيني والزهور. تعشق عيناي الزهور لما تبعث فيهما من سرور وأمل... »

عند هذه الجملة النفسية وقفت أفكاره ، وارتفع الضباب عن نفسه وزال. لم تزله الفكرة ، ولكن أزلته الفتاة الجارة . لقد طلع وجهها بين المحبسين يبتسم، يبتسم بكل جزء فيه، يبتسم له!

ـ «نجحت الذريعة، إنها تبحث لقلبها عن أمل جديد، لا شك انها ليست متزوجة، ما أجملها! شمس سجينة!

لم يكن الأمل الجديد الذي تبحث عنه الجارة الحسناء

زوجاً، فهي تملك زوجاً ولا حباً، فهي تشك في أن تجد يوماً من تحبه.

صحيح ان الحب يهمس أحياناً في وجدانها همسات غريبة تتفتح لأنغامها كل ذرات شعورها وترفعها إلى سماوات عالية من الوجد والحنان والشوق اللانهائي لكن هذا الحب الحالم لا يلبث أن يذوب في واقعها القاسي الذي تحيا فيه.

ثم من الفتى الذي يستطيع أن يحملها إلى تلك الأجواء البعيدة التي طالما تجلت لها في الأحلام، حيث ملكوت الحب يجعل من كلا الحبيبين معبودا وعابدا؟ كلا لن يوجد هذا الفتى الجميل كله، الطاهر الذي يملك المال والسلطان والعبقرية، والذي يؤلهها وتؤلهه. كلا ان الحياة قاسية لم تخلق آلهة وإنما خلقت شياطين والشيطان مهما كان جماله وعبقريته وملكه فلن يمنحها سوى الجحيم.

هل هي جميلة؟ لقد حدثتها المرآة عن جمالها بما ملأ نفسها غبطة ورضاء. ولقد أكدت لها كل العيون التي شاهدتها هذا الحديث، فهي إذن من هذه الناحية ناعمة البال، مطمئنة النفس، ولكن جمالها هذا لم تسعد به. فقد رأت عشرات الشبان ينظرون إليها بشوق وإعجاب، بيد أن أيديهم انبسطت لغيرها من الفتيات، فكانت رغبتهم منها أقل من الزواج.

كانت جميلة ولكنها ولدت من أبوين فقيرين فيجب أن تأخذ قسطها من ذلك الفقر. لم تكن تملك حلى ثمينة ولا أثواباً رفيعة، كما لم يسعفها فقر أبويها أن تنال حظاً موفورا من الثقافة. تعلمت الكتابة والقراءة بالفرنسية إلى حد بسيط، بيد أن مخالطة الأتراب علمتها إتقان اللهجة وحسن الكلام بهذه اللغة.

وتعلمت أيضاً من أترابها الطريقـة الأوربية في الملبس ومن أمها الطريقـة الجزائريـة في التلحف والتلثم. وكما وفقت بين الطريقتين في اللباس لاءمت بين الحياتين في السلوك. فهي حية ساذجة عربية التعبير والسلوك أمام الأهل وأمام الغير ممن ماثلوا أهلها في التفـكير والحياة، وهي فرنسية التعبير والمظهر أمام أمثالها من الشبان والفتيات.

لـكنها في أعماق نفسها كانت تحس أنها لا تحيا وإنما تمثـل دور الساذجة في البيت، ودور المتقـدمة في الشارع، عندما تتاح لها فرصة للخروج.

ودور الساذجة هذا، اضطرها للرضاء بأول خطيب. لم تفـكر جدياً في الزواج ولا فيمـا يترتب عليه من مسؤوليات. قبل أبواها فقبلت، وتزوج معظم أترابهـا فتزوجت.

كان زوجها فقيرا وجميلا، وجماله أغناه عن التفـكير الجدي في وضعيتـه الماديـة. فهو دوماً يضحك. ويضحك عالياً. ولم لا يضحك ما دام شعره الأصفر ووجهـه الوردي يثيران حفائظ رفاقه ومعارفه من الشبان؟ وما دامت عيون الفتيات ولا سيما السمراوات ترنو إليه بـكل ما تحمـل النظرات مـن أحـلام؟

إنه يعتقد أن زوجتـه لا تفـكر إلا في حبه وفيمـا يعمق ذلك الحب. لم يخطر بباله أن وجهـه الوردي وشعره الأصفر لا يفيدان كثيرا في حياة زوجية تشارك فيها الأم ويشارك فيها الإخوان والأخوات في بيت ذي حجرات ثلاث لا تتسع جميعها لأسرة من القطط فضلا عن البشر!

لم يخطر بباله أن الزوج مهما كان جميلا لا يبقى أبدا كذلك في نظر الزوجة، ولا سيما زوجته التي تعتبره بكل براءة قنية.

لكن الغريب في أمر هذين الزوجين الجميلين أنهما يحسنان تبادل الثناء إلى حد الإفراط إنك تسمعهما فتتوهم أن الحب لم يخلق إلا في قلبيهما، وأن الأرض لم تنبت جميلا غيرهما. وعلى هذا النمط من النفاق البرىء يعيشان.!

* * *

رجع عبد الرحيم إلى حجرة الجلوس بعدما اختفى وجه الفتاة الحسناء وراء الحائط ووقف أمام المرآة:

— «هذا وجهي، أربعون سنة رددته أمام بصري صفحات المرايا. تعددت المرايا واختلفت والصورة واحدة، نفس الصورة القبيحة التي أعرفها له، لوجهي. أحب صورتي لأنها قبيحة، لا تتغير. الجميل هو الذي يتغير. أحب وجهي القبيح لأن كل من ابتسم لي، ابتسم لفعلي، لم يبتسم لوجهي. لكن الفتاة الجارة ذات المحبسين ابتسمت لي هي أيضاً! هي لا تعرف عني ولا مني شيئاً، ما عدا هذا الوجه القبيح. من يدري لعل عيون النساء لا تنظر لأوجه الرجال. إنني ابتسم! وما أجمل وما أسخف أن أبتسم لنفسي! أن يبتسم وجهي لعيني في مرآة! يكفيني هذياناً الان. يجب أن أنصرف إلى العمل...

«الساعة العاشرة إلا ربعاً، لا أذهب إلى الحديقة فلا أظن ذات المحبسين تخرج في هذه الشمس المحرقة، ولم يبق لدى

من الوقت ما أنتظر فيه خروجها. أذهب إلى عملي القديم الذى ليس للأيام المقبلة دخل في تغييره. تسعون في المائة من غيب المستقبل كامن في حياتي الماضية. ورثت عن أبي حب الكلمة فما أزال أراني أجري وراءها حتى تفقدني أو أفقدها.»

كان عبد الرحيم مدرساً، وفي المدرسة سأله أحد التلاميذ:

ـ ما البلاغة يا أستاذ ؟

فأجابه بصورة آلية:

ـ البلاغة أن تحيا مع الناس.

فردّ التلميذ في شبه احتجاج، ظاناً أن أستاذه يسخر منه: صفتي كتلميذ تجعلني في غنى عن إثبات انني أحيا مع الناس. نظر إليه عبد الرحيم ملياً وأعاد قائلا:

ـ أن تحبا مع الناس، تلك هي البلاغة يابني.

* * *

لم يشعر الأستاذ عبد الرحيم بالقلق من تلاميذه والمدرسة التي يعلم بها منذ افتتاح السنة الدراسية مثل اليوم. فقد تخيل اللحظات أياماً لا حد لطولها. كان لا يفتأ ينظر لساعته ، ثم يقرّبُها من أذنه، ليتحقق من عدم توقفها فيجدها تدق دقاتها الرتيبة المنتظمة وتسير سيرها الطبيعي المجرد. وكان في كل مرة يفعل ذلك يشتد حنقه على عدم توقفها. وأحس أن صبيحة اليوم لا تشبه صبيحات الأيام الماضية، فهي أطول من أن تكون ليوم واحد. بيد أنه لم يكن على موعد، ولا جد جديد في حياته المادية. بل لو كانت نفسه اليوم مثل نفسه في الأيام الماضية لأدرك أن أصبوحة اليوم

جميلـة، لينة الطقس، باسمـة الفضاء، رقيقة الأنسام، وأن تلاميذه طيبون معه في الجملة. لـكن نفسه اليوم لم تـكن معـه. كانت عند المحبسين، حيث ابتسمت له الفتاة في الصباح.

وعندما أوشك حلول وقت الخروج من المدرسة لاحظ أن هذا الرقم الذي يرمز للساعة الحادية عشرة جميل: فالراحة التـي يمنحها إياه مثل الراحة التي شعر بهـا في الصباح عند رؤية المحبسين. ثم انه رقمان متساويـان مزجت بينهمـا الوحدة وخلقت منهما دلالة على حلول ساعة، على حياة. ولاحظ أيضاً أن رقم 11 لا يتغير شـكله ولا مدلوله في مختلف اللغـات، وسرته ملاحظته، وسره حلول الحادية عشرة فخرج مسرعاً عائدا إلى بيتـه في شوق.

* * *

تعجبت الفتاة الحسناء عندما أفهمها عبد الرحيم أنه لا يحسن الفرنسيـة. كان يظهر لها دائماً رجلا متحضرا، فأوقات خروجه وعودته إلى الدار تدل على أنه موظف. والموظف في نظرها يجب أن يحسن الفرنسية. ثم هو يسوق سيارته بنفسه مثـل الأوربيين تماماً أو بالأقل مثل من تعرفهم من أثرياء المدينة الذين قل بينهم من لا يتـكلم الفرنسية. وإذا تناول طعامه بالحديقـة وكثيرا ما رأته، تناوله أحسن من الأوربي الذي كان يسـكن هذه الدار قبلـه.

قال لها لا يتـكلم الفرنسية ومع أنها كثيرا ما رأته بحديقـة الدار جالساً وبيده كتاب! كيف يمكن إذن أن يقرأ كتاباً وهو لا يعرف الفرنسية؟

لو كانت ترى نفس الكتاب في يده لاقتنعت في النهاية انه مثل الكتاب الذي يملكه أبوها... كتاب: «قصة رأس الغول» لكن الكتب التي كانت تراها عند هذا الجار مختلفة الأشكال والألوان، ففي كل يوم ترى في يده كتاباً لا يشبه الذي بالأمس، وليس أحمر مثل كتاب أبيها...

تعجبت أن لا يحسن جارها الفرنسية، وتعجبت أكثر أن يقول لها ذلك بلاخجل ولا تلعثم بل بابتسام!

كانت تعتقد أن الفرق بين المتحضر والمتأخر يبدو في اللغة التي يتكلم بها كلا الشخصين. ولذلك كانت تتكلم الفرنسية مع كل من تتوسم فيه تقدماً وتريد أن تظهر أمامه بمظهر الفتاة المتطورة العصرية. لكن عبد الرحيم أفهمها انه لا يتكلم الفرنسية بدون أي تردد أو خجل...

* * *

– هل تعرفين انك جميلة... أجمل من النور؟

– وأنا هكذا؟...

كانت مرتدية ثياباً عادية، ثياب كل يوم، وليست متطرية. فرد عبد الرحيم قائلا وعيناه ترشفان في هدوء من زلال جمالها الدافق من كل نقطة في وجهها وجسمها:

– ولا سيما وأنت هكذا!...

فأجابت بابتسام فاتر، وعيناها تنظران إلى مكان بعيد:

– إنك تسخر...

تعودت أن تقول هذه الكلمة «إنك تسخر» لكل من يذكر جمالها أمامها. وهي مع ذلك تتيقن انها جميلة، وتتيقن أيضاً أن هذا الجمال الذي لا تستطيع إنفاقه فيما تود يشبه الفستان الثمين الذي لا تستطيع الخروج به صاحبته.

– وأتأكد أنك لا تعرفين مستوى جمالك وإلا لما تكلمت معي...

– ولماذا لا أتكلم معك؟

– لأن قبح صورتي نادر في هذا الوجود.

ضحكت بالرغم عنها من هذا التصريح المفاجيء، وأحست وهي تضحك بشيء من الدهشة والإعجاب بهذا الجار! قال لها أولا لا يحسن الفرنسية ولم يخجل، وهو يقول لها الآن إنه أقبح مخلوق، بكل بساطة ويسر دون أن يبدو على ملامحه أي تألم!

– إنك تبالغ . وإذا كان لا بد من أن يقاس الناس بجمالهم فأنت لست قبيح الصورة كما تتوهم.

– صحيح، ليس جمال الصورة هو المقياس الوحيد للناس، ولكن في غير الحب.

– وفي الحب أيضاً، إذ ما أفعل برجل جميل الصورة فقط؟ ثم إن الرجل الجميل لا تحيا معه بقدر ما تتعذب.

قالت هذه الجملة في شيء من الأسى مما جعل عبد الرحيم يتخيل في نظراتها تلك الحائرة قصة حزينة، فينقطع عن الكلام بصورة عفوية ويأخذ في التأمل لا في وجه الفتاة الجميلة ولكن في الحائط الفاصل بينهما، وفي حياط أخرى حدثته بها نفسه:

– «بين دارها وداري جدار، وبين جمالها وقبحي جدار،

وبين عمرها وعمري جدار، وبين تفكيرها وتفكيري أيضاً جدار. فكم تستطيع هذه العاطفة المتشبثة في نفسي أن تذيب من كل هذه الجدران؟ إن المنطق السليم يقضي أن أنصرف وأن لا أعود إلى التفكير فيها مطلقاً.

ولكن ها أنذا جامد في مكاني انتظر منها بسمة أخرى، وها أنذا حزين لحزنها، بل غيرة مما أحزنها»...

لحظات مرت وكلاهما يتحدث إلى نفسه أو يسمع إلى ما يجري فيها من أحاديث . وبقدر ما كانت أحاديث نفسه قريبة منها بقدرما كانت أحاديثها بعيدة عنه، فكانت تقول في سرها:

— «بماذا أفادني جمال زوجي؟... جماله يعرضه على كل عابرة أو طارقة، جماله للبيع دائماً كخضر السوق ولكن بدون مقابل، جماله شق لي قبرا في جحيم أهله فأنا الحية الميتة وأنا الغريبة الغربية، وأنا الوحدانية... فقر أهلي أرغمني على الرضاء بفقره، لكن أنا الجانية على نفسي. لو امتنعت وتريثت قليلا لتزوجت بغيره، لوجدت رجلا أكون في عينيه «أجمل من النور!»

— آه لو ترضى بي زوجا لعبدتها، لألهتا بحبي وبشعري لصارت شمس أيامي التي لا يعتريها غروب. وإذا كان لابد من غروب فسأصرخ في الوجود بكل وجودي وأقول:

— «قف أيها الزمن وقفي أيتها الشمس. إن شمسي لاتحب الغروب!

وسألته فجأة:

— وزوجتك؟ أين هي؟

فهز هذا السؤال كل كيانه وأحس أن كل ذرة في جسمه انبثقت منها عين من نور، فإذا وجوده المظلم استحال في لحظة إلى وجود من نور. فأجابها وعيناه اغرورقتا بالدموع... دموع السرور والحب، دموع النور الذي يملأ وجوده:

– زوجتي؟ لست أدري...

– كيف لا تدري؟ هل بعيدة من هنا؟

– إن وجدت من ترضى بي زوجاً...

– لم أفهم ما تقول...

– لم تفهمي... إن كلامي واضح.

– أنت إذن غير متزوج.

– ربما سأفكر في الزواج منذ اليوم.

– لماذا؟ وقبل اليوم، ألم تفكر في الزواج؟

– لم أفكر في الزواج.

– إنك رجل غريب! إن الزواج أحسن لك من هذه الحياة.

– ربما.

وفكر عبد الرحيم في الشاب الجميل ذي الشعر الأصفر الذي يسكن نفس الدار التي تسكنها هذه الجارة. والذي كان يظنه أخاها. فكر أن يتعرف عليه، ثم إن رأى إمكانية خطبة أخته منه خطبها ليقلب صفحة حياة العزوبة نهائيا. وقال لها:

– ما اسم أخيك؟

فدهشت من سؤاله وقالت:

– أخي؟ من تعني؟ ليس لي أخ.

– الشاب الجميل الأزعر.

ضحكت الفتاة وقالت:

– كريمو؟ إنه زوجي.

– إذن... أنت...

انقطعت الجملة في حلقه، وأحس كأن أصابع من زجاج مسكت قلبه بقوة حتى تهشمت فيه. وإذ رأته الفتاة تلعثم وتغيرت ملامحه سألته:

– مالك؟

– لا... لا شيء... إنها الأغنية اللعينة!

وانثنى راجعاً إلى بيته في يأسه الجديد، وبقيت الفتاة الحسناء مشدوهة من هذا السلوك الغريب، ثم عادت إلى بيتها. وبعد لحظات امتدت أصابعها إلى المحبسين واختفت بهما، وعاد الحائط إلى صورته الأولى حاف السطح، غليظ السمك: لا محابس زهور ولا إشراقة وجه جميل. وتمر لحظات أخرى وإذا بالأغنية تنطلق من جديد: «أنا الوحدانية، وأنا قليلة الوالي»... وكانت الساعة حينئذ تدق الواحدة بعد منتصف النهار.

الجزائر 7 جويلية 1965

# الاغنية القديمة

كنا بحجرة الاستقبال ، وحدنا ، كانت جالسة قبالتي ، لم يكن بين مقعدينا إلا حوالي (70) صنتم ، ولكنها لم تكن تبدو لي إلا كخيال ، أو كرسم لشخص في مشهد خلفي ، للوحة زيتية . كانت تعمل كل ما بوسعها لتظهر بمظهر الحزينة الكئيبة ، احتراماً لما أنا فيه من حزن ، أو اتقاء لحدة شعوري... كانت الساعة حوالي السادسة مساء كنا قد فرغنا منذ قليل من تناول طعام الإفطار . والواقع لم نكن نشعر لا أنا ولا هي بحاجة إلى طعام لولا الصيام وما عودنا إياه من اجتماع تلقائي حول مائدة الطعام كل مغرب .

كانت حجرة الاستقبال هذه التي اتخذناها للأكل أيضاً منذ حلول شهر رمضان، تشبه في هذه الليلة إحدى قاعات الانتظار في المحطات القروية الصغيرة للسكة الحديدية. وكنا نحن، كمسافرين ينتظران القطار الذي يمر في ساعة متأخرة من الليل. كنا صامتين، وكان كل شيء صامتاً حولنا، كان جهاز التلفزيون في ركن البيت يشبه العين التي انطفأ نورها منذ سنين، وكان في الجهة الأخرى جهاز راديو كنت أراه كرزنامة لسنة مضت. كانت الزجاجة الكهربائية المعلقة في السقف ترسل علينا وعلى ما حولنا نورا باهتاً جردنا وجرد ما حولنا من كل ظل، كان نورا ميتاً. كان كل شيء صامتاً سامدا ما عدا الساعة فوق رف المدخنة كانت تواصل سيرها الدائري وعزفها الرتيب المطرد.

كنت أشعر بوحدة وغربة لا أجد وصفاً لهما ولا مثيلا لهما فيما عرفت من وحدة وغربة. لم أكن أفكر في شيء معين كنت ذاهلا وفي ذهولي كنت أرى الطريق الجديد الذي سلكته لأول مرة وأعدت سلوكه أربع مرات دون أن يكون لي في سلوكه أدنى اختيار، طريقاً ملتوياً شاقا، اشتد ضيقه حتى أشبه صراط الأشقياء، وكثرت انعراجاته ومخاطره حتى لكأن المصعد فيه يصعد إلى شقائه والمنحدر معه ينحدر إلى حتفه، وفي التوائه وضيقه وتعرجاته وأخطاره كانت ترتسم بعض المشاهد من حياتي التي لا تقل تعرجاتها خطرا عن هذه التعرجات.

— «وتكلمت زوجتي فقالت:

— «لم يبق من سيقارتك إلا العقب...؟

أشعلت السيقارة ووضعتها على طرف المدخنة وأنسانيها تعرج دخانها وصعوده الذي أشبه طريقي الجديد...

وأجبت زوجتي قائلا : «نعم لم يبق إلا العقب»

ـ «فقالت في سذاجة : «أشعل أخرى»

أشعل أخرى؟ هل بيدي بعث ما فقدت بالأمس القريب؟ هل بيدي أحياء حياة سلبها الموت من بين يدي؟ هل بيدي أن أحيا حياة أخرى لها نفس لذة الحياة التي صارت رمادا؟ هل بيدي أن أتصور بسهولة أن كل ما مضى يشبه هذه السيقارة التي اشتعلت؟ والمهم ماذا إذن؟ العقب؟»

لم أجب زوجتي، لم يكن اتجاهنا واحدا، الحديث معها لم يكن في يوم من الأيام مريحاً، وفي هذه الليلة لو حدث ماذا يكون؟ ثم أن عزمي على فراقها لم يعد يقبل إلا المهلة الضرورية التي تقتضيها الظروف التي أمر بها، وإذن فهي أجنبية مهما كان الأمر، أجنبية مهما حاولت إثبات وجودها، لم يعد لحديثها أثر على نفسي، عذباً أو حامضاً، أنا متأكد من أن فراقنا هذه المرة لن يكون بعده رجوع، ولن تكون له أية مرارة لأن تجربة حياتنا المشتركة وما تخللها من محاولات للبقاء معا لم تنته بنا الى اتجاه مشترك، بل أفضت الى تأييد ما في الطلاق لكلينا من راحة. حتى الأسباب الخارجية التي كانت تدعوني أحياناً الى محاولة البقاء مع هذه الزوجة زالت، العلاج الذي كان يضطر أبي الى المجيء للجزائر والإقامة عندنا الأسابيع الطويلة على زوجتي، وأهل زوجتي قد انتهى. أبي لن يعالج بعد اليوم لن يضايق

أحدا ولن يضيق بأحد . فضل الرجوع الى الأصل حيث أبواه وأحب الناس إليه ، حيث الثلج يحرم على الظلام الاقتراب من قريتنا عندما يشتد طغيان الظلام. فضل أبي أن يعود من حيث أتى، الى تربة التكوين التي من ذراتها خلق .

حتى العمة الطيبة الرؤوم لن تقول بعد اليوم أمامي الى ابنة أخيها مثلها الجميل ، مواساة وتصبيرا «الضيف ضيف ولو يقعد شتا وصيف». لن تجد حاجة الى المجاملة وتليين الجمل ، عندما تأتي غدا أو بعد غد، ستبكي إذ تراني حزناً على حزني وعطفاً على أبي الذي لن يعود أبدا إلى هنا. ستبكي ولو مجاملة. لن يصعب على عينيها الذكيتين إيجاد قليل من الدموع القديمة التي خلفتها وفاة زوجها في ذكرى من ذكرياته. ستجعل نفسها في تلك اللحظات الصق الناس بي قرابة ، وأشدهم إليّ حباً. ستتحدث عن أمي بعطف ، عما لاقته من عذاب أثناء مرض والدي وستختم: «ان أمي ارتاحت من عذاب السفر والذهاب والإياب بين الجزائر وقريتنا البعيدة وأن أبي سعيد لأنه مات بيننا، واننا سعداء لأننا أحياء:

«أنا أمي إخواني وأخواتي» وسينتهي حزنها هنا لتنتقل بعد ذلك الى الحديث عن البرد والعواصف التي مرت بمدينة الجزائر وما خلفته من خسائر. وهنا ستشاركها ابنة أخيها في هذه العواصف، ستحييان لحظاتها لحظة لحظة وستمران بمدينة الجزائر شارعاً فشارعاً وبيتاً فبيتاً ستذهبان بعيدا عني وعن أحزاني وسأبقى أمامها وحدي أجنبياً مثلما أراني الآن أجنبياً في هذه الحجرة التي طالما آنست بالجلوس فيها وحيدا، هذه الغرفة التي كان لي كل ما فيها أنيساً وجليساً حتى الأثاث وها هي ذي تصير بعيدة عني، أجنبية، حتى الكتب، حتى

الإسطوانات، حتى الزهور الكورية التي سهرت على طرزها وتجسيمها في باقة حمراء لا يلحقها الذبول فتاة قد تكون فقدت أمها أثناء غارة من غارات العدوان وقد يكون أبوها عزلته في الجنوب الأسلاك الأمريكية الشائكة فأفرغت كل ما في وجدانها من شوق ولوعة، وكل ما في إحساسها من فن في هذه الباقة لعل من يراها يذكر أن في قلب كوريا الجميلة أسلاكاً شائكة.

كل ما هنا أجنبي عني كأن ذلك التيار الخفي الذي كان يربط بين الأشياء ونفسي انقطع فجأة فإذا الظلام يملأ نفسي ويحول بينها وبين ما يسر؟

كنت متأكدا أن أبي سيموت ، كنت أنتظر ذلك أسبوعاً فأسبوعاً ويوماً بعد يوم ، مرض القلب لا يرحم ، والشيخوخة لا تستطيع مواجهة ما يتربص بها ... وكنت أحياناً أود له أن يموت على أن يتألم . كنت أحسب وأعيد الحساب لما يكلفني موته من نفقات كما لو أني أستعد لتزويجه؟ تألمت لذلك وخجلت من قساوتي وحساباتي ، والحقيقة كنت أخشى حينئذ أن يموت وأنا لا أملك من المال ما أواجه به الكارثة .

الموت الذي كنت أتمثله كان مسرحياً ، بل تمريناً جزئياً ... في المأساة المسرحية نحزن، ثم نهتف في النهاية للبطل الذي مات منذ لحظات بحياته ، أما الموت الحقيقي فهو شيء آخر.

هل أستطيع أن أنام الليلة ؟ كم أود أن أنام وأنسى كل شيء لو فكرت عشية اليوم لاشتريت منوماً ، لعل صندوق الصيدلية بها بعض الأدوية المنومة :

– ألا يوجد بصندوق الصيدلية منوم؟

– متى اشتريت منوماً؟ في كل مرة أوصيك عن دواء قد نحتاج إليه تجيبني ساخرا: عندما نحتاج إليه، ها أنت الآن احتجت لمنوم، لو اشتريته قبل اليوم لوجدته...

– يكفي، يكفي، أرجوك..

كادت أن تجرني إلى خصومة أنا في غنى عنها، يكفي، يا ابنة الناس، يكفي لوماً ونقدا وخصومة، فنحن الآن أبعد ما نكون عن بعضنا بعضاً، ان يقظتي لن تؤرقك وجراحي لاتؤلمك يكفي فقد انتهى ما بيننا ولو أنك لا تعرفين أن أرقي الليلة لن يزعجك مثلما أزعجك ليالي حرب الشرق الأوسط لن أسمع إذاعة ولا أنتظر أخبارا جديدة إن سهرت وإن أرقتني أحزاني فإنني لن أزعج نومك الهادي، سأستمع إلى جراحي تسيل في نفسي هاته الليلة وفيما يليها من ليالي.

* * *

عندما اندلعت حرب الشرق الأوسط كان أبي مريضاً وكنت انا أيضاً مريضاً، لكن مرضه كان بداية لموته، لموته الذي لم أصدق به في يوم من الأيام، جاءتني رسالة من أخي يخبرني فيها ان أبي واجد عليّ لكوني لم أزره في مرضه، وكنت في نفسي أقول... «يزعم دائماً انه مريض ومرضه الحقيقي هو تقدم سنه لا أكثر». وكانت أعمالي في الواقع لا تسمح لي بالذهاب إلى قريتنا حيث يسكن الأهل والإخوان، لم يكن بإمكاني أن أزور الأهل كل أسبوع ولا كل شهر فالقرية تبعد عن الجزائر بحوالي

220 كلم والطريق الموصلة إليها كثيرة التعاريج والإلتواآت، فكل مرة أسلكها أكلف نفسي عناء ومشقة، صحتي لا تقوى عليهما، كنت إذن أكره الذهاب إلى القرية لمشقة الطريق وكنت أكره القرية نفسها لما أحس فيها من وحشة وغربة بالرغم من اني ولدت فيها، لم يكن كرهي استعلاء وعداء لحياة الأرياف، ولكن كرهي لها كان لأسباب أخرى...

ثم ان أغلب سكانها جدد هاجروا إليها من قرى مجاورة. وأغلب سكانها الأصليين أخيارهم ماتوا أثناء الثورة، ومعظمهم هاجروا إلى فرنسا في طلب العيش لهم ولذويهم وجزء استوطن الجزائر العاصمة أو نواحي أخرى من الجمهورية وهم القلة القليلة من أبناء القرية الذين نالوا حظاً من الثقافة.

فالسكان الحاليون إذن لا تربطني بهم أي صلة، دفعهم أمران للسكن بهذه القرية رغم فقرها وقبحها الطبيعي، محطة السكة الحديدة والطريق الرئيسية التي تربط الجزائر وقسنطينة. تركوا فلاحاتهم وآراضيهم وبيوتهم وانتقلوا إلى هذه القرية فاصطفت بيوتهم على حافتي الطريق، بيوت من طوب أو حجر متشابهة في الدكنة والبؤس والبناء... هاجروا إلى هذه القرية ليحترفوا التجارة! كلهم تجار، ولكل منهم دكانه الذي به نفس السلع التي في دكان جاره، والعجيب انها دائماً مفتوحة وان أصحابها هم هم صيفاً وشتاء. كم من مرة وأنا بهذه القرية أتساءل: «لمن يبيع سلعهم هؤلاء الناس؟ ومماذا يعيشون؟ كل له دكانه وبالدكان نفس ما بدكان الجار» وأغلب هذه الدكاكين مكتوب

فوق بابها بحروف خضراء أو سوداء «الباب مفتوح والرزق على الله» يا لها من سذاجة؟

بعدما فرغت من قراءة الرسالة قررت السفر في ذلك اليوم لزيارة أبي المريض ونويت أن أنقله إلى الجزائر إن وجدت حالته تدعو إلى ذلك.

وفعلا لما وصلت وجدته مريضاً، كان يشكو ألماً في معدته لم نعرف ما هو، وذكرت له عزمي على نقله إلى الجزائر ففرح فرحاً عظيماً، وأخذت أمي تعد الحقائب إذ اني كنت مضطرا للرجوع في نفس اليوم، فقد تركت زوجتي وحدها.

وبعد وصولنا في المساء لاحظت أن أبي كان بالرغم من مرضه ومن تعب السفر مسرورا مغتبطاً وكانت أمي كذلك. ولو كانت زوجتي تؤمن فعلا بالحياة الزوجية المشتركة واستقبلتهما بالأقل كضيوف وابتسمت لهما من أجلي لعم السرور في تلك الليلة جميعنا، ولكنها كانت تؤمن بأن الحياة الزوجية ليست تقاسم مسرات وملمات بين الزوجين إنما هي تنازع سيطرة الغالب فيها هو المسيطر! وهكذا كانت بقدر ما يتقرب إليها أبواي ويتوددان بقدرما تظهر لهما النفور واللامبالاة. وكانت وهي تعد العشاء تتحدث وحدها في منولوق متذمر ساخط... أحياناً تقول: إنها ليست خادماً في هذه الدار، وأخرى تقول: لو كانت وحدها لما جشمت نفسها تعباً لإعداد العشاء، ولكانت اكتفت بتناول بعض الفواكه وكان حديثها ذاك المنفرد مسموعاً مما جعل أبي يهون على غضبي.ويقول:

«إنها مسكينة ما زالت لم تتعود الحياة العائلية، إنها صغيرة وعليك أن تصبر فسوف تتعود بحياتها الجديدة معك، وترعوي عن سلوكها الحالي»

فكرت أن أنهيها ثم عدلت عن ذلك لأني خشيت أن أعطيها مبررا لإثارة خصومة ما انفكت تبحث عنها كامل العشية فأعكر صفو والدي.

:

وكنت منذ أيام أتألم من ضرسي ولكن في تلك الليلة زادت ألامها أضعافاً فلم ينفع في إسكاتها دواء ولا مخدر فلم أتناول طعام العشاء وغضبت زوجتي لذلك غضباً شديدا واتهمتني باستفزازها وإثارها... أكدت لها ما استطعت أن ألم ضرسي يمنعني من تناول الطعام فلم تصدق، وراحت تكيل الاتهامات وهي تقول: «إن لم يعجبك طعامي فتزوج بامرأة أخرى تحسن إعداد الطعام» وتقول «لم أر في حياتي أن ألم الضرسة يمنع من الأكل... إنك تريد إغضابي تلك هي الحقيقة لو كان طعام امرأة أخرى لأكلته ولو كانت ضروسك مريضة، أتظن أنني غبية لا أفهم مقاصدك...؟ وتقول: «إذا لم تتعش فلن أعد طعام الغذاء غدا فتش عن امرأة أخرى تعد لك الطعام أحسن مني».

وهكذا قضت كامل السهرة على نفس الوتيرة وزادها سخطاً اني لم أجبها، ورحت أتحدث مع والدي بصورة عادية كما لو لم أسمع شيئاً.

وكانت أمي تبدو حزينة واجدة على بذاءة هذه المرأة... وحوالي الساعة العاشرة عندما ذهبت لأنام خاطبتني بتهديد قائلة:

لا أريد أن أسمع إذاعة أفهمت؟ وكانت تعرف انني منذ تأزم الحالة في الشرق الأوسط صرت لا أنام إلا في وقت متأخر من الليل، بعد أن أكون قد استمعت إلى عدة إذاعات عربية وأروبية ولا سيما إذاعة «صوت العرب» التي كانت حينئذ قائمة بحملة دعائية واسعة النطاق موهمة أن العرب هم أشد قوة من إسرائيل وحلفائها بما فيهم الأمريكيون... وان جيش الجمهورية العربية المتحدة قادر على سحق إسرائيل وتحرير فلسطين في ساعات معدودة وانه حان الأوان لكي تنزع هذه الرصاصة الأمبريالية (إسرائيل) من جسم الأمة العربية وأن الحرب إذا اندلعت هذه المرة بين العرب وإسرائيل سوف تكون قاضية على هذه الجرثومة الاستعمارية (إسرائيل) وأن سنة 1967 ليست 1948 ولا سنة 1956... إلى آخر هذا النوع من العبارات الحماسية البطلة إن صح التعبير؟

وكنت رغم احتراسي الشديد من الخطب الرنانة والحروب الكلامية أتوهم عن حسن ظن أن العرب لن يخسروا في هذه الجولة وظننت أن جيش الجمهورية العربية المتحدة والجيش السوري على الخصوص قد وصلا إلى مستوى من القوة والخبرة يجعلهما يقفان بصمود كبير في وجه الغزاة الإسرائيليين...

وكان أكد لدي هذا الظن ما قرأته حينئذ في الصحافة المصرية من أن الجيوش العربية ستسحق المعتدي في أربع وعشرين ساعة...

طبعاً كنت أعرف أن الجيش الإسرائيلي لا يمكن تحطيمه في أربع وعشرين ساعة ولكن إذا استمات العرب في الدفاع عن أنفسهم، واستعملوا مختلف الأساليب الحربية بما فيها حرب

العصابات وأعمال الإرهاب يستطيعون جعل الحياة لدى الإسرائليين علقماً ثم جحيماً وتصير عندئذ الهجرة من فلسطين أمرا منطقياً لكل اليهود المغرورين الذين تركوا أوطانهم والبلدان التي ولدوا فيها وترعرعوا في أحضانها وجاؤا إلى فلسطين الجحيم لا فلسطين الجنة، وتتبع هجرة هؤلاء هجرة العسكريين المرتزقة الذين تستخدمهم الإمبريالية العالمية في أغراضها الهيمنية والتوسعية، لأن الصفقة عندئذ تصير خاسرة.

وكنت أعرف كذلك أن الصراعات الطبقية والمنافسات المحلية في السيطرة على مقاليد الحكم ثم العاطفية المنغلقة والصوفية الروحية التي ما تزال متفشية في التفكير العربي تجعل من أعسر العسير الوقوف صفاً واحدا في وجه الاستعمار الإسرائيلو ـ أمبريالي وتجعل غلبة العرب بالتالي أمرا مشكوكاً فيه إن لم تكن غير ممكنة. ولكن الدعاية العربية والفخر العربي والأناشيد العربية والأغاني العربية والخطب العربية والصحافة العربية الناطقة والمكتوبة كانت تدوي عالية، تدوي بعنف وقوة ... الكل يتحدث عن سحق إسرائيل، سواء على مستوى المنظمات أو الحكومات بل حتى على مستوى الأفراد... كان اللسان أبطش من اليد وفقدت كل الأوزان اللغوية مدلولاتها فصارت صيغ المبالغة وحدها اللغة ووحدها العقل ووحدها السياسة فخدعت في أمري، وتوهمت كما توهم الآلاف من أبناء الوطن العربي أمثالي، أن إسرائيل في هذه المرة لن يتيسر لها بالسهولة التي تظن إذلال العرب.

وزاد من تدعيم هذا الوهم في نفسي ما سمعناه حينئذ من

أفواه «مسؤولين» عادوا من خطوط المواجهة وزاروا مختلف الجبهات من أن استعدادات الجيوش العربية تضمن النصر الحاسم في هذه الجولة...

فتحت جهاز الراديو وأخذت أبحث عن محطة «صوت العرب» وكانت زوجتي تدير ظهرها إليّ، هكذا تفعل كلما كانت في غضب ولما سمعت أصوات المحطات التي تمر بها الإبرة وأنا أبحث عن «صوت العرب» استوت جالسة في الفراش وأشعلت الضوء وقالت: «إن كانت أعمالك بالنهار لاتتعبك أنت فالناس ليسوا مثلك»

فالناس التي تعني زوجتي هم هي، أعمالها متعبة وأعمالي مريحة؟ ما هي هذه الأعمال المتعبة التي تقوم بها زوجتي؟ تعد القهوة في الصباح لي ولها، ثم تقوم بترتيب الدار وتنظيفها وهو أشق عمل تقوم به يومياً. ولكن ما مقدار هذا الجهد الذي تبذله في الترتيب والتنظيف ونحن اثنان في هذه الدار؟ ثم تعد الطعام... هذي هي كل الأعمال المجهدة التي تقوم بها، وهناك طبعاً غسل الثياب مرة في الأسبوع. ولكن ما يغضب زوجتي هذه الليلة ليس العمل الروتيني الذي تقوم به وإنما مجيء أبي وأمي إلينا ووجودهما معنا يترتب عنه بالطبع تحديد في الحرية التي كانت فيها وحدها، فهي لن تستطيع الاستماع إلى الأغاني التافهة التي تستمع إليها كل يوم على المسجلة، ولا مكالمة صديقاتها هاتفياً، والحديث معهن عما جد في عالم الأغاني البخسة التي تمتلىء بها الأسواق، أو الموضة «وفساتين ياسمينة...»

أحست زوجتي أن وجود أبويّ معنا حد من حرياتها،

وفعلا فبالإضافة إلى ما حرمت منه من عبثها اليومي مع الأغاني والهاتف فقد حرمت أيضاً من الذهاب إلى الحمام...، الحمام؟ إنه سوق الزواج والطلاق، وصالون التباهي بين النساء بما يملكن من أفخر المجوهرات والفساتين؟ وبديهي أن عدم ذهابها إلى الحمام هذه المدة أراحني كثيرا من السماع إلى ما لا أحب، وخفف من مطالبها المستمرة أياي باشتراء ما جد في عالم الملبوسات ولو على حساب الخبز.

طبعاً كان لدينا بالدار حمام، ولكنه كالمحراب لا ضجيج فيه ولا حركة ولا قيل ولا وقال والحمام بهذا الشكل لا يهم زوجتي.

رحت أبحث عن «صوت العرب» بالرغم من احتجاج زوجتي وبعد برهة وجيزة من البحث عثرت عليه... «تجتاز أمتنا العربية في الظرف الراهن أخطر مراحلها المصيرية ولكن شعبنا العربي الأبي، والجيوش العربية الباسلة ستلقن العدو الإسرائيلي درساً لن ينساه، إن أيام سنة 1948 وسنة 1956 لن تتكرر، إن جيشنا اليوم وقواتنا الضاربة ستحقق النصر الذي طالما حلمت به أمتنا العربية...»

وانطلق النشيد «الله أكبر؟...» مدوياً يبعث في النفس الثقة وفي القلب الإيمان بقواتنا الخيالية ومقدراتنا الوهمية... وفعلا كنت كلما أسمع هذا النشيد أشعر بالثقة التي لا حد لها... كان يذكرني بأيام حربنا التحريرية عندما كان شعبنا بالجزائر يصارع أكبر قوة عسكرية وسياسية...

وبقدر ما كنت أشعر بالمضايقة من طرف زوجتي كنت أشعر براحة البال فيما يتصل بالمعركة المقبلة... كنت أقول في نفسي «إن لم تحقق الجيوش العربية النصر في هذه المرة فستحققه الأمة العربية والشعب العربي، لأن الحرب لن تنته في أيام قلائل كما حلم ويحلم الصهاينة دائماً، ستبدأ حرباً كلاسيكية فإن لم يحصل نصر فستحول إلى حرب شعبية، تتسع فيها رقعة المعركة على العدو فتضيع سدى إمكانياته التقنية والإلكترونية

ونمت يا إخواني مرتاح البال، في قلبي حلم النصر ونشوته، وفي عيني دموع السرور المنتظر... وفي أذني موسيقى النشيد القوي، نشيد النصر...

آه كم هو محزن أن لا ترتفع أفعالنا إلى مستوى أناشيدنا؟ ومضت أيام قلائل فإذا بالنصر الموهوم يستحيل إلى هزيمة أخرى أشد إيلاماً وأقوى مرارة وإذا الأحلام الحالمة تصبح يأساً يائساً..

* * *

قالت زوجتي وقد رأت صمتي طال:

— فيما ذا تفكر؟ إنك لست أول من فقد أباه...

فضلت الصمت على إجابتها.

— وأرادت أن تدخل قليلا من السرور على نفسي فقالت: أتعرف أن أم كلثوم غنت أغنية جديدة؟

كنت منذ مدة انقطعت عن الاستماع إلى الإذاعة وخصوصاً بعض الإذاعات العربية لا لموت أبي فقط بل لليأس المرير الذي تركته في نفسي أناشيد أيام الهزيمة.

وأضافت زوجتي قائلة:

ـ سمعتها فجأة في إذاعة القاهرة تغني الأغنية الجديدة، وإلا لـكنت سجلتها، إنهـا أغنية جميلـة ولـكني لا أعرف عنوانها، هي أطول من كل أغانيها السابقـة.

كنت منذ بداية السهرة أفـكر في الطلاق لأعيش بلا دار بلا أمل بلا مستقبل، لأعيش حياتي يوماً يوما كل يوم لا يرتبط بسابقـه ولا بلاحقـه...

ولـكن هل يمنع ذلك أم كلثوم من أن تغني أغاني أطول من أغانيها السابقـة؟ هل يزعج ذلك العالم العربي ويمنعه من نومه الهـادي العميق؟ هل يعيد ذلك إلي أبي الذي فقـدتـه؟

إن أبي مات سواء أحببت أم كرهت، وإن العالم العربي نائم سواء أعشت في فوضى أم في نظام وعشرة وإن أم كلثوم ستغني أغاني طويلـة وطويلة للملايين الحالمين سواء أسمعتها أم لم أسمع، وان زوجتي ستحيا سعيدة سواء أنويت الطلاق أم العيش معها.

وأدركت في النهاية انني في حاجة إلى تقييم جديد لحياتي الزوجية ولرؤيتـي للموت ولمشاعري نحو العالم العربي الذي أحبه والذي أنا منـه، فأم كلثوم لو وجدتنا في شغل لما غنتنا أغاني طويلة وإسرائيل لو وجدتنا صامدين لما شنت علينا الحرب تلو الأخرى فحرب واحدة كانت تـكفي، وان زوجتي لو لم تجد تذبذباً في سلوكي نحوها لـكانت كـكل الزوجات.

وقمت من حجرة الاستقبال التـي كنا جالسين بهـا إلى حجرة النوم، وفتحت جهـاز الراديو وبحثت عن «صوت العرب» فوجدت أم كلثوم تغنـي...

والتحقت بي زوجتي فرحة مسرورة وقالت:
هذه هي الأغنية الجديـــدة؟

وفي الحقيقـة لم تـكن الأغنية جديدة، كانت من الأغاني القـديمـة، وأحببت أن أصحح خطأ زوجتي فقلت لها:

«ليست جديدة إنها أغنية قديمـة؟»

الجزائر في 17 أفريـــل 1971

# عزيزة

كان مجيد في كل مرة يعتزم أن يكلم صديقته وزميلته في الدراسة ، عزيزة ، في موضوع الزواج يمنعه الحياء فيؤخر الكلام في الموضوع الى فرصة اخرى .

ولما اقتربت الامتحانات كانا يلتقيان يوميا لمراجعة المواد المقررة . وكان المكان الذى اتفقا على المراجعة به هو شقة صغيرة في دار أهل مجيد القريبة من الجامعة وكانت هذه الشقة من أجمل حجرات الدار منظرا ، فهي تقع في الطابق الرابع ، لها نافذة واسعة مطلعة على البحر ، وبعيدة عن ضوضاء شارع ديدوش مراد. لم يكن بها أثاث كبير كانت تشتمل على طاولة ومقاعد وخزانة بها مرآة تغطي بابها. وكانا عندما يجلسان يريان صورتهما على المرآة، فيتبادلان نظرات ود من خلالها نظرات خفيفة، ثم يعودان الى كتبهما.

واستمر هذا اللقاء بين الفتيين أياما متوالية ولكن موضوعه

كان دائما المطالعة والتحضير للامتحانات. وكانا ينتميان الى عائلتين وجيهتين عصريتي الحياة والسلوك تحررتا منذ زمان من قيود الحجاب وما يتبعه من التقاليد القديمة ، بحيث كانتا لا تريان مانعا في ان يراجع الفتى دروسه في شقة بدار أهله مع فتاة أو العكس. لكن أهل عزيزة لم يكونوا يعلمون بأن بنتهم كانت تخالط مجيدا أو تذهب لدار أهله، ولو علموا بذلك لمنعوها ولسخطوا عليها لما بين العائلتين من عداوة قديمة وذات يوم كان مجيد وعزيزة بصدد مراجعة الدوس وكان الجو رائقاً جميلا يبعث على السرور والانطلاق ، فبدا لمجيد أن يفاتح صديقته في الموضوع الذي طالما واعد نفسه بمحادثتها فيه بأن يوضح لها ما يعاقه من أمل على مستقبل مشترك بينهما فخاطبها قائلا

- عزيزة

- نعم .

- أطرح عليك سؤالا وأريد أن تكون الاجابة بداهة بدون أي تفكير

- وان كانت اجابتي صحيحة فماذا سيكون جزائي ؟

- أعطيك أكبر عدد .

فابتسمت عزيزة وقالت :

- ألق سؤالك .

- تمثلي نفسك أمام أستاذ من الاساتذة أو أمام لجنة الامتحانات

- فعلت .

- لماذا تحبين الزهر ؟

فضحكت عزيزة وقالت :

– هذا هو السؤال ؟

– نعم .

– أحب الزهر لأنه يبتسم ولا يتكلم .

– عشرة على عشرة !

فقالت عزيزة :

– الان أسالك أنا.

– هاتي ما عندك .

– لماذا الخمر تسكر ؟

– انتقاما من ظلام السجون .

أعجبت عزيزة بجواب مجيد وشاعريته وقالت :

– حسن أسألك سؤالا آخر .

فعارض مجيد قائلا :

– لا ، الان دوري انا .

فقبلت عزيزة اعتراضه وقالت :

– اسأل .

– ما هي أجمل كلمة يقولها انسان لانسان ؟

احمر وجه عزيزة خجلا وقالت :

– لا أجيب على هذا السؤال .

– عرفت أنك سترفضين الجواب ، لانك شغوفة بالتلميح بدل التصريح ، قولي أحببت أن أحدثك في موضوع هام . .

– ما هو هذا الموضوع الهام ؟

وغلبه الحياء فلم يستطع مصارحتها وقال :

– لا ، ليس الان . سأحدثك عن هذا الموضوع بعد الامتحان.
– كما تشاء .

فكر مجيد لحظات ثم قال :

– ارأيت صورتنا المنعكسة على مرآة الخزانة ؟ انني عندما أكون وحدي ارانا فيها معا

بدت على ملامح عزيزة مسحة من الخجل وقالت وهي تنظر الكراس الموضوع على الطاولة أمامها :

– أنت تبالغ .

فرد مجيد مؤكدا :

– لا أبالغ ، انني حاولت كم من مرة أراني فيها وحدي فلم أستطع ، كلما أنظر الى الخزانة ارانا على مرآتها جالسين جنبا الى جنب ، مثلما نحن الآن .

– يجب أن نفكر في الامتحانات يا مجيد ، يجب أن ننجح .

– وهل تشكين في نجاحنا ؟

– ومن يدري، قد تكون الاسئلة صعبة أو . .

– لا تخافي . . اننا سوف ننجح . أنا متأكد من ذلك .

نظرت اليه بحنو وقالت :

– ان أندر شيء فيك وأجمله الى النفس هو هذه الثقة . . انني عندما أكون وحدي تساورني الشكوك أحيانا في النجاح، ولكن عندما أكون معك وأسمعك تتحدث ارى النجاح بعيني وارى اسمي من بين الناجحين .

فرد مجيد بابتسام قائلا :

ـ أما أنت فأندر شيء فيك هو عدم حبك للظهور وميلك الشديد الى التستر والتكتم وهو ما يدفعني دوما الى اكتشاف حقيقتك واستجلاء غوامضها .

رأت عزيزة أن تغير موضوع الحديث فقالت :
ـ الآن يجب أن نراجع دروس الفلسفة .
فقال مجيد ضاحكا :
ـ وأول المشاكل التي نراجعها طبعا هي مشكلة المعرفة...

لم يكن أهل عزيزة يعلمون بعلاقتها الدراسية مع مجيد كما تقدم ولا بترددها على دار أهله لمراجعة الدروس معه استعدادا للامتحانات. وكانت هي تعلم ما بين أهلها وأهل مجيد من عداوة قديمة، لتردد ذلك على ألسنة أبويها في مختلف المناسبات ، ولكنها لشدة ما سمعت عن هذه العداوة أحست بدافع غريب يدفعها للتعرف على هذه العائلة. وذات يوم بالمدرسة تعرفت على مجيد، وبمرور الايام صارا صديقين... وهكذا تعرفت على أهل مجيد ، واكتشفت طيبة هؤلاء الناس وسماحة أخلاقهم، وتحول ماكانت تشعر به نحوهم قبل مخالطتهم من ظغينة وحقد وكراهية الى عطف وود.

وبالرغم من تحرر هاتين العائلتين من كثير من التقاليد البالية الا انهما لم تستطيعا التحرر من هذه العداوة الموروثة التي كان منشأها طلاقا وقع في الماضي السحيق . .

غير أن عزيزة فكرت أنها تستطيع في يوم من الايام

أن تخبر أبويها بزمالتها لمجيد وان تفهمهما بأن ما يتصورانه من شراسة أخلاق أهل مجيد وفضاظة طباعهم ليس الا وهما من الاوهام منبعه هذه البغضاء التي خلفها لكلتا العائلتين ماض عتيق . ولما أحست بميل مجيد الى تطوير صداقتهما واخراجها من نطاق الزمالة الى فضاء أكثر رحابة، حيث العواطف والحب والآفاق الحالمة... رأت أن تمهد من جانبها الطريق الى هذا المستقبل التي رأت أشعته مرتسمة على عيني مجيد، وقررت ان تخبر أمها بالحقيقة.

– أبوك لا يرضى أبدا بهذه العلاقة.

– لماذا ؟ هل علاقتي بمجيد تحط من قيمته؟ ان اهله غير ما تتصورين يا أماه . .

– ربما ، ولكن أباك لا يرضى أبدا بصداقتك له .

– لقد حدثني عن نيته في خطبتي ، هل هذا عار ؟

– تستطيعين أن تتصورى المستحيل أما هذه المصاهرة فلن يقبلها أبوك . انك تعرفين مبلغ هذه العداوة من نفسه.

– عداوة ، عداوة . . . وما شأني أنا بهذه العداوة ؟ حديثه في الموضوع اولا قد يكون تفكيره غير ما تتوهمين .

– اعرف أباك وأعرف تفكيره ، وأنصحك أن تكفي عن مخالطة هؤلاء الناس، المثل يقول : « ضربة بسيف للي ما عندوش النيف »

– يجب أن تخبريه لأعرف نهائيا ما ينبغي أن أفعله .

– عندما يعود سأخبره ، وسوف تتأكدين مما قلته لك .

عزمت عزيزة هذه المرة أن تعرف نهائيا رأي أبيها في موضوع خطبة مجيد لها . ورأت أن تتأكد أولا من ردّ أبيها قبل أن تجيب صديقها بالقبول أو بالرفض. وكانت بالرغم من تقديرها وعطفها على مجيد لا تتصور الخروج عن طاعة أبويها من أجل ارضائه لأن التربية التي تلقتها من والديها رغم ما فيها من الحرية المفرطة أحيانا جعلتها تثق برأيهمّا ولو انها تتظاهر أمام أمها في بعض الاوقات بعدم ثقتها المطلقة فيما يقولان لها. وفي الواقع كان عطفها على مجيد لم يصل الى الحب ، وانما هو نوع من الصداقة التي لا تتطلع الى التحقق المادي. بينما كان مجيد يعلق على هذا الحب الذى يتصوره صداقة كل آماله وكل مشاعره. وبقدر ما كان هو شديد الانفعال شديد الحساسية كانت هي هادئة الطبع فاترة المزاج .

ولما عاد أبوها الى الدار وأعلمته الام بالموضوع جاء الى قاعة الجلوس حيث كانت هي وقال لها :

— عزيزة ، أصحيح ما قالت أمك من أنك لا ترين مانعا في التزوج بهذا الرجل ؟

خجلت عزيزة من هذه الصراحة المفاجئة التي استعملها أبوها ، ولم تستطع أن ترد جوابا في الحين . فاستأنف قائلا :

— ان اعطيتك الحرية المطلقة فلأنك ابنتي الوحيدة ، ولأني أومن بأن حرية المرأة هي أفضل طريق لحصانتها من

أمراض كل أنواع الكبت والحرمان . على اني لا اود لك أن تلقي بك هذه الحرية فيما لا تقرّبه عيناك ولا أعيننا . ان هؤلاء الناس أعداء لنا منذ القدم ، وهم مشهورون بالطلاق فالمرأة عندهم عبارة عن متاع يباع ويشترى . فقد طلق جدهم سابقا عمتنا، وتجاوز الامر بيننا وبينهم حدود الطلاق وشملت القطيعة بيننا كل نواحي الحياة. ولطالما كانت هذه العداوة حديث العام والخاص. وصار الان من المستحيل علينا أن نتصور أي صلة تنشأ بيننا وبينهم. انهم أناس عوام ، لا أصل لهم.

لم تجب عزيزة بحرف واحد ، وأدركت أن اباها اذا كان استعمل هذا اللطف معها فليس يعني ذلك أنه يمكن أن يسمح بوقوع مثل هذا القران .

وأضاف الأب قائلا :

– أنت تعرفين مقدار حبي لك فأرجو أن يكون فيما ذكرته كفاية وأن تمحي من نفسك نهائياً هذه الفكرة، وتبتعدي عن هذا الفتى .

* * *

– تبكين... ذلك كل ما تستطيعين فعله . دموع فقط ، دموع ... ماذا تريدين أن أفعل بالدموع ؟ قولي ...

كفكفت عزيزة دموعها وقالت بصوت متقطع :

– قلت كل شيء يا مجيد، إن أبي لا يريد أن أحدثك منذ اليوم... إنني فتاة...

ـ فتاة برجوازية، عرفتك الآن...

ـ يكفي أرجوك... إنني حاولت إقناعهما ولكن لم أستطع. لنبق أصدقاء ولو لا نتلاقى، ألا تؤمن بصداقتنا الروحية يا مجيد، لنعش أصدقاء إلى الأبد، ولتملأ صداقتنا أرواحنا لا آذان الناس.

ـ أرجوك كفي عن هذا الكلام، إنني أمقت التفكير البرجوازي والرومانطيقية الزائفة.

ـ ما من حقك يا مجيد أن تصف عواطفي الصادقة نحوك بالرومانطيقية الزائفة...

وغلبت عزيزة الدموع فلم تستطع إتمام كلامها. وطوال هذا الحديث بينهما كان مجيد يصل به الانفعال أحياناً إلى أقصاه، ولكنه عندما يرى دموع عزيزة يرق ويلين فترة ثم يعاوده الانفعال، وهكذا... وفي هذه المرة لما رأى عزيزة تبكي قال بهدوء:

ـ لو كنت صادقة في حبك لحاولت المستحيل وبذلت ما لا تستطيعين من جهد، ولرأيت في تلك المحاولة وذلك الجهد سعادة.

ـ فكر جيدا يا مجيد، إنني امرأة.

ـ هذا كلام لا أفهمه.

ـ إنني فتاة تنتسب إلى عائلة معينة...

ـ وماذا يترتب على ذلك؟

ـ يترتب على ذلك انني أفضل الموت على أن أكون سبباً في معاداة أهلي باسم الحب.

سكت مجيد لحظات ثم قال بتنهد:

ـ كل هذا لم أفهم منه ذرة.

فقالت عزيزة لائمـة :
- لاتفهم ماأقـول لأنك لاتحب أن ترى الأرض .
- فأجاب مجيد متسائلا في هـدوء :
- وأي شـيء فيها هذه الأرض التي تذكـرين . ؟
- فقـالت عزيزة بانفعـال :
- فيها أن الفتاة ليس لها أن تجابه أباها بما تحب،فيها أن الفتاة ليس لها أن تضحي بسمعتها وسمعة أهلهـا باسم الحب ...
فكمـل مجيد حديثها بسخـرية وقال :
- ... فيها ان العقلية البرجوازية لايمكن أن تصير عقلية شعبيـة رخيصـة،تؤمن بـالحب بدل الجفـاء الطبقي ... اننـا لسنا من طينة واحـدة كما يقولون .
- انك تتحامل علي وتصفني بمختلف الصفات لتثيرني،سامحك الله . لماذا تفتعـل هـذه الغلظة التي لاتليق بك ، ولاتخدع النـاس في ادراك حقيقتك ؟
- حقيقتي صارت وهما من الأوهام .
- انني والله لست أدري أي طريـق أسلك؟ ان المرارة التي أشعر بها قد تتعدى مرارتك ولـكن علينـا بالصبر يا مجيد. علينا أن نجعل من حبنا شيئاً مقدساً بعيداً عن متناول الألسنة لنجعل منه حياة روحية لنا إزاء هذه الحياة المادية التافهـة .

لم يجب مجيد بأي شيء، كان يشعر أن عزيزة لم تستطع الإحساس بهذه النار العاطفية المتأججة في نفسه. وإذن فلم الجواب ولم الـكلام؟ ما دام أن كل لفظة تؤدي به إلى سماع عزيزة تكرر هذا الحب الخيالي الذي ليس له أي متعلق في الواقع.

ـ هل كان في الماضي يصاب أحياناً بهذا الإغماء والهذيان؟
ـ لا، هذه أول مرة. أرجوك يا دكتور لا تخف عني شيئاً، لأنه ابني الوحيد .
ـ أصيب بانهيار عصبي. ناوله الأدوية التي كتبتها له ثلاث مرات في النهار ، وبعد أسبوع أعيد الفحص ، فإن لم يطرأ أي تحسن على حالته فسنرى حينئذ ما يجب فعله..
ـ أتظن يا دكتور أنه يخرج سالماً من هذه الازمة؟
ـ بلا ريب إنما أنصح له بالهدوء والتزام الفراش طوال هذه المدة.
ـ ما رأيك يا دكتور لو نقلناه إلى بوزريعة؟ لي دار هناك مجهزة بكل المرافق.
ـ أحسن وأحسن ، فالهواء هناك أنقى وخصوصا الهدوء ...
ـ اذن غدا انقله .
ـ لكن يجب أن يكون معه أحد .
ـ طبعا ، طبعا . . نرسل معه المرأة القائمة بشؤون المنزل، وتذهب أمه لزيارته يومياً وأنا أيضا .
ـ اذن هناك أحسن. ارجو له الشفاء . على كل ان رأيتم حالته تدهورت وساءت فكلموني هاتفياً . . .
ـ شكرا يا دكتور .

* * *

كانت حالة مجيد سيئة أكثر مما تصور الطبيب . والاب . فلم يكن أصيب بانهيار عصبي وحسب بل أصيب باضطراب عقلي صيره في معظم الاوقات يحيا في محيط خيالي وهمي لا صلة له بواقع الناس.

وكانت المرأة القائمة بشؤون الدار التي أرسلت معه الى سكناه الجديد للقيام بشؤونه والسهر على صحته تدعى عزيزة. لم يمض عليها وقت طويل في خدمة هذه العائلة، ولم يكن مجيد يعرف طبائعها، قبل أن يصاب بهذا الاختلال العقلي بل لم يكن في الواقع يخالط لا هذه ولا من سبقنها من المساعدات.

وكانت هذه العاملة الفقيرة سوداء اللون كرفيقاتها السابقات. وكان أهل مجيد لا يستخدمون الا النساء السود، تفننا في البورجوازية. فهم يعتبرون القط الاسود والكلب الاسود والخادم السوداء من مظاهر البورجوازية الحقة التي تجعل من الجمال الخارجي الذى يحصل بانسجام الاشياء والالوان ضرورة من الضرورات التي يقتضيها الذوق السليم.

كانت هذه المساعدة اذن سوداء اللون ، لم يعطها الله حظاً من جمال ولكنها كانت في الجملة طيبة النفس ، حسنة الصوت رخيمته.

وفي أحد الايام كان مجيد في حالة تشبه الذهول. جاءت أمه لزيارته فلم يكد يشعر بها. وكان يجيبها عن كل أسئلتها بهذه الجملة :

« جاءت عزيزة الى هنا ولامتني عن تغيير موضع الخزانة ».

وتوهمت الأم ان ابنها يتحدث عن عزيزة المساعدة ، لأن هذه أعلمتها أنه لم يأت لزيارة ابنها أي شخص ، وأنه سألها مرات عديدة عن الخزانة ، لكنها لم تعرف بماذا

تجيبه . . وقررت الام ان ترسل في أقرب وقت الخزانة التي بغرفته في المدينة الى هناك .

ولما انصرفت الأم كان ما يزال في حالة ذهوله ذاك، بالرغم من الهدوء الذي يظهر عليه فسألته المرأة العاملة عن حالته فأجابها :

– أحوالي ؟ لست أدري .

فقالت داعية بالخير له :

– ان شاء الله لا بأس ، وجهك اليوم أحسن منه بالأمس . الخزانة التي سألتني عنها سترسلها غدا « لا لا » .

فالتفت اليها مجيد دون ان ينظر وجهها وسألها قائلا :

– قولي ، ما اسمك ؟

فضحكت قائلة بسذاجة :

– أنا ؟ اسمي يا سيدى ، عزيزة .

– عزيزة !

– نعم يا سيدى اسمي عزيزة .

فقال محدثاً نفسه وهو في شبه الحالم : « عزيزة ما ارق هذا الاسم وأعذبه ! اسم لين كالحرير ، عذب كالنغم، جميل كالنور. اسم حروفه استقرت في أعماقي وملأت فضاء روحي ... »

فظنته المرأة المساعدة يتحدث عنها فقالت باستحياء :

– شكرا يا سيدى . أنت تشعر عليّ شكرا .

واسترسل مجيد في حديثه النفسي المنفرد قائلا بهمس : « عزيزة،

اسم حبيب الى قلبي، أليف لنفسي، يعذب في لساني ذكره، اسم ... »

فقاطعته المرأة العاملة قائلة بنفس السذاجة :

ـ ما أحلى كلامك يا سيدى ، شفاك الله ... كلامك جميل يشبه الغناء.

فاسترسل مجيد في حديثه المنفرد الحالم : « ...اسم هو ألم ألمي وراحة راحتي . ابتسمي يا عزيزة ، فان بسمتك ستذيب هذا الظلام الصلب الذى يحول بيننا ، وستزيل من الوجود هذه الرواسب القذرة التي خلفتها ليالي العصور العتيقة .

كانت عزيزة المرأة المساعدة طوال هذا المنولوق تشعر بنوع من الغبطة لم تعرفه في حياتها . ولما رأته توقف عن الكلام قالت بابتسام وحنو :

ـ شكرا يا سيدى على كل ما قات. لقد ادخلت على نفسي البهجة والسرور. قل يا سيدي هل انصرف ام أبقى هنا عندك فأجاب مجيد عن سؤالها قائلا كالمستيقظ من حلم :

ـ لا لا تنصرفي. ابقي هنا أمامي أو الى جانبي. لا تذهبي، لا تدعيني وحدى ألا ترين أني أحيا في منتصف ليل الحياة ؟ ألا تعرفين أن الروح اذا فارقت الجسم لم يعد للجسم معنى ؟ انك روح هذا الجسد الذى أمامك يا عزيزة .

فأجابت العاملة بلهجة تنم عن الرضى والطاعة :

ـ اذن سأتي بكرسي لأجلس عليه . ان كلامك هذا أعجبني.

فهمس مجيدا مناديا :

ـ عزيزة .

ـ نعم يا سيدي .

ـ لا تذهبي .

ـ تريد أن أقعد هنا عندك ؟ شكرا يا سيدي. ها أنا ذي أجلس الى جانبك ولن أنصرف حتى تطلب مني ذلك .

ـ عزيزة .

ـ نعم ،

ـ أنت هنا ؟ حقيقة أنت هنا ؟ انني سعيد أن تكوني هنا. لم أكن أتصور أن الحياة تنعم علي بهذه السعادة . قولي يا عزيزة ؟

ـ ماذا أقول يا سيدى ؟

ـ هل أنت سعيدة بوجودك الى جانبي ؟

ـ آه يا سيدي ، أكثر من السعادة . .

لم تستطع عزيزة اتمام كلامها فقد غلبتها الدموع ، وأحست بنفسها تفيض سرورا فلم تستطع أن تعبر بالكلمات عما تحسه . لأول مرة في حياتها اكتشفت عواطفها المكبوتة ، وشعرت بوجودها كامرأة محرومة . ولاول مرة أيضا شعرت بحنان يملأ نفسها... حنان يتسع لجميع البشر ، وأحست أن سواد جسمها لم يعد حائلا بينها وبين الناس... ها هو ذا شاب جميل أبيض اللون وثري لم يعتبرها كخادم بل اعتبرها كإنسان كامل الإنسانية وحدثها بأعذب لفظ وأرق عبارة. كم كانت غالطة وهي تتصور أن الناس فريقان متضاددان تضادد ألوان بشرتهما... ما السواد وما

البياض ، أليس هما صنوين متلازمين تلازم الليل والنهار؟ أليس السواد أشعة من الشمس التي يحبها جميع الناس ؟

انها سعيدة كأكمل ما تكون السعادة ، وانها لذلك مسرورة ، وانها من أجل كل ذلك لم تستطع التعبير بالكلام وانما بالدموع ...

* * *

عندما جاءت الأم في الغد لزيارة ابنها وجدت حالته ازدادت سوءا ، وصار يهذي أكثر فأكثر بالرغم من أن مظهره الخارجي بالنسبة للذي لا يعرفه لا يدل على أن ضعف وعيه بلغ الى درجة خطيرة .

كان يتكلم باستمرار عن عزيزة، وكان في كلامه كثيرا ما يخلط بين عزيزة خطيبته وعزيزة العاملة. وكان اذ يتحدث لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، بل ينظر دائما نحو زاوية البيت وكان كثيرا ما يسبح في حديث نفسي منفرد كمن يرتل في كتاب مقدس .

وأخبرت الأم المرأة العاملة ان ابنها لا يتناول من الطعام الا القليل اليسير.

جلست الأم ازاء ابنها فرأته مغمض العينين كالمستغرق في نوم أو في حلم ، ولاحظت أن وجهه ازداد اصفرارا بالنسبة ليوم أمس. فرفعت عن حاجبه الايسر خصلة متدلية من شعر رأسه كادت تغطي عينه . وأخذت تمسح جبينه وتدلكه دلكا خفيفا في حنان وحزن عميقين. واذا بمجيد ينادي :

– عزيزة .

– ماذا تريد يا ولدي ؟

فسألها مجيد بلهجة تنم عن الاجهاد :

– من أنت ؟

– أنا أمك يا مجيد. هل تريد شيئاً ؟ كنت أظنك نائما ولذلك لم أكلمك

سكت مجيد برهة من الوقت ثم قال :

– أمي .

– ماذا يا ولدي ؟

– أين كنت ؟

– كنت هنا يا بني. وصلت منذ مدة فحسبتك نائما فلم أشأ إيقاظك .

– هل أبي علم بزواجي ؟

– زواجك ؟ ممن يا ولدي ؟

أدركت الأم ان ابنها يهذي فجارته في حديثه ، وقالت مضيفة :

– ان شاء الله يا بني نفرح بشفائك ونفرح بزواجك .

– أما زال يؤمن بعداوة حطمتها أنا وعزيزة ؟

– أبوك يا ولدي لا يريد لك الا الخير .

– أبي كان يظن أنني ملك له يتصرف في كيف شاء... لكنه غالط.

– أبوك يا مجيد ليس له الا انت. أنت ابنه الوحيد. هو يعتبرك ابنه لا ملكه. انك مثقف يا مجيد ، وكان عليك أن تفهم وضعيته.

ــ وضعية أبي وضعية زائفة ، خلقها هو ...
وأضاف قائلا في انفعال :
ــ زيف وضلال ... لا ابرر الزيف ولن ابرره. ان لم يرد ان يحضر في حفلة زفافي فلا أتحير من غيابه .
ــ مجيد !
ــ من أنت ؟
ــ أنا أمك يا ولدي .
ــ وهو أبي .
ــ اننا نحبك يا مجيد، ليس لنا الا انت .
ــ أنانية. تظنان أني من صنعكما .
ــ أنت من صنع الله يا ولدي ...

ولم تستطع الأم التعبير بالكلام فالدموع منذ مدة تبحث عن منفذ لتسيل جارية فانهالت على خديها. وفتح مجيد عينيه ورفع بصره نحو أمه فرأى دموعها سائلة فقال :

ــ يا أماه ! لو فهمت جزءا ضئيلا مما أنا فيه لبكيت بغير هذه الدموع...لبكيت بدموع أخرى كل قطرة منها تشهد أمام الله بأن الانسان لم يتطهر من اللعنة القديمة ان هذا الواقع زيف يا أماه . لا تبك يا أماه فدموعك تؤلمني ولا تواسيني. لا تبك يا أماه فقد خلقت عيناك لتشع بالسرور لا لتسيل بالدموع. دعيني أبك وحدي وجودي في هذا الظلام الذى يطوقني . انني لا ارى شيئاً .

* * *

أخبرت الام زوجها أن ابنهما ازدادت حالته سوءا ، وان الأفضل له ولهما أن لا يتركاه "ببوزريعة" بل الاولى وهو في تلك الحالة أن يكون بالبيت في المدينة أمامهما.

فاستشار الاب الطبيب في ذلك فوافق على ارجاعه الى المدينة . ونصح الطبيب ان يحاولا خطبة هذه البنت التي تعلق بها ولدهما، ولو رفض أهل هذه البنت . لأن علمه بأن الرفض آت من أهل الفتاة أقل وطأة عليه مما هو فيه الان .

فكر الاب في نصيحة الطبيب مليا ثم قرر أن يخطب الفتاة. ولكن قراره جاء بعد فوات الأوان. فبمجرد المساعي الاولى التي أخذ يقوم بها علم أن الفتاة تزوجت ، ولم يبق له الا الالتجاء مرة أخرى الى العلاج.

وقام الطبيب بسلسلة من الفحص على الفتى المريض فتبين له ان برءه أصبح عسيرا ، وان على أهله ان يرسلوه الى احدى المصحات الأروبية المختصة في الامراض العقلية.

* * *

بعد أن تم اعداد الاوراق اللازمة لنقل المريض الى اروبا، رأت الام أن تخبر ابنها بالمساعي التي بذلها أبوه في خطبة الفتاة... اذا استطاع ان يفهم عنها شيئا ، وان تعلمه كذلك بأنه مسافر الى اروبا للتداوي بناء على ما نصح به الطبيب ...

دخلت الى حجرته فوجدته مستلقيا على ظهره وعيناه تنظران الى السقف بامعان غريب وخاطبته وهي تقترب منه.

— مجيد .

فلم يجبها ولم يحول بصره عن سقف البيت، فاعادت النداء:

ـ مجيد ولدي .

فأجاب مجيد بصوت هادي دون أن يحول بصره عن السقف :

ـ ماذا ؟

ـ أتدري أن أباك عدل عن رأيه السابق وخطب عزيزة ...

ـ خطب عزيزة !

ـ خطبها يابني ولكن لسوء الحظ وجدها تزوجت .

فضحك مجيد وعيناه دائما متجهتان الى السقف ، وكان وهو يضحك يبدو عليه اجهاد كبير وضعف بين ، وقال :

ـ لماذا لسوء الحظ ؟ ألم أقل لك اننا نتزوج رغم معارضتكما؟ عزيزة ليست في حاجة الى من يخطبها .

فلاحظت الام أن ابنها أصبح مختل العقل وان كل حديث معه لا يجدي نفعا ولم يبق لها ما تقوله له الا ارسال الدموع الملتهبة في مآقيها، وراحت تبكي بحرقة وحزن ولكن في غير صراخ .

التفت مجيد الى أمه فرآها تبكي فقال :

ـ لماذا تبكين يا أماه ؟ ألأنني تزوجت بعزيزة رغم ارادتكما ؟ أنتما اللذان اردتما ذلك ثم نادى :

ـ عزيزة عزيزة .

فأجابته الأم :-

ـ ماذا تريد يا ولدي ؟

– أين هي عـزيـزة ؟

– تـركتهـا بالمطبخ . أتريد شيئا ؟

– أريد عـزيـزة .

قامت الأم فنادت عـزيـزة فأقبلت هذه مسـرورة مبتسمـة ، وقـالت :

– مجيـد مـاذا تـريد ؟

لم ينظـر اليهـا مجيد ككل المـرات السابقـة . كأن شيئا ما يمنعـه من النظـر اليهـا بالـرغم من تـوهمـه انهـا حبيبتـه. وقـال لهـا :

– اجلسي .

فقـالت بلهجـة ضـاحكـة :

– هـا أنـا ذي جلست مـاذا تـريد ؟

– حدثي أمي ...

– مـاذا أقـول لهـا ؟

– قـولي لهـا اننـا اتفقنـا على الـزواج رغم معـارضتهمـا ، واننـا عمـا قـريب سنقيم حفلـة الـزفاف .

لم تستطع المـرأة العـاملـة أن تتحدث أمـام ربـة البيت، وشعـرت بخجـل وخشيـة من الأم . فـأعـاد مجيد قـائلا :

– لمـاذا لا تتكلمين ؟ أأخجلك حبنا؟ ان الحب اذا كان طاهرا مثـل حبنـا لا خجـل منـه قـولي لهـا انني أحبك وانك تحبينني...

قامت الأم فخـرجت بـاكيـة ، واستمـر مجيد في حديثـه الى المـرأة العـاملـة :

– ألا تحبينني يـا عـزيـزة ؟

ـ أحبك .

ـ أقسمي بالله أنك تحبينني .

ـ أقسم لك بأبي وأمي وبكل عزيز ومقدس عندي ...

ـ بأنك تحبينني ؟

ـ بأني أحبك ؟

ـ ولن تحبي أحدا سواي مهما كان الأمر .

ـ ولن أحب سواك مهما كان الأمر .

ونصحت له قائلة :

ـ الآن يجب ان تستريح ياعزيزي انك مريض .

وكانت في أعماق نفسها تعتقد ان مجيدا يحبها ، وأنه غير مختل العقل ، وانما أهله لم يستطيعوا هضم حبه لها. وكانت من أجل ذلك تشعر بسعادة لا مثيل لها .

وسألها مجيد قائلا :

ـ لماذا تحبينني يا عزيزة ؟

ـ لأنك أول فتى أحبني، ولم يمنعه سواد جسمي ان يدرك صفاء روحي. انني أحبك أحبك الى الأبد. ليقولوا ما شاؤوا انك مختل العقل فأنا لا أصدق أحدا. ان اختلال عقلك عندي أحسن ألف مرة من كل العقول السوية التي عرفتها. اني لأحبك حتى لأبكي من السعادة التي غمرت بها روحي ».

فابتسم مجيد وقال بصوت خافت :

ـ ان حبنا جعلهم يقولون اني مختل العقل ، وسيقولون عنك ما قالوه عني .

ـ صدقت يا مجيد ، انهم مساكين لا يعرفون سعادة الحب

التي ننعم بها نحن المحبون . انهم مختلو العقول ولذلك لا يستطيعون معرفة الحب .

ـ ان الحب يا عزيزة كالحقيقة قلما يعرفها الناس.

ـ من يوم أن حدثتني بحبك اكتشفت حقيقة الحياة وحقيقة نفسي ، فأنا أسعد امرأة . انني أبكي من سعادتي يا مجيد . انظر الى دموعي كيف تسيل .

أحست المرأة العاملة ان السعادة التي تغمرها صيرت بشرتها أبيض ألف مرة من البياض، وأن سواد جسمها لم يعد الا وهما من الأوهام ، بل حلما مزعجا عذبها في الماضي وها هي الآن تخلصت منه نهائيا والى الأبد.

وأحست أن كل ذرات جسمها تدفعها الى تقبيل مجيد ، وانها فاعلة ذلك، فلم يعد في مستطاعها السيطرة على أعصابها. واقتربت منه ، وانحنت لتقبله فلم يبد أية حركة . كان ينظر الى السماء نظرة الغارق في حلم .

فقبلته فلم يتحرك ولم يتنفس ولم يقل كلمة . فنادته فلم يجب ولم ينظر اليها .

كانت عيناه غارقتين في حلم أبدى لن تزعجهما فيه يقظة . . . فحركته برفق ثم بقوة فانثنى رأسه فصاحت صيحة يائسة : مجيد ، لماذا خدعتني ؟ مجيد! . . .

# الانسان

وحيدا... في الأدغال، في المهامه، في الكهوف، فوق الجبال، فوق الرمال... في كل مكان كان وحيدا. هكذا وجد، هكذا يحيا، هكذا يعود!

ماضيه، حاضره، مستقبله: عذاب ملازم وحلم بعيد، يعرفه وجدانه حدساً، ولا تعرفه عيناه.

حكم عليه أن يسير، أن يسير أبدا فإن توقف فتلك النهاية.

لكن آلام السير، واختلاط الطرق واستمرار الوحدة صيرت حلمه أوهاما ذات أصداء تصل أمواجها إلى أبعد كياناته.

في أدغال وجوده يلهث وينادي:

«آهاه! آهاه! انتظري هناك! انتظريني قليلا ريثما أصل.

«آهاه!... انتظري لا تتركيني أجري عبثاً. إن ركبتي وهنت من السير، وقدمي تنزف دما... هذا هو الطريق لم أخطىء ولكن الضباب حولي كثيف!

يجري وراءهم، مسكين! مسكين يملك إرادة لن تتعدى به حدود الموت، مسكين أيضاً يشق طريقه بيديه وهو لا يعرف النهاية!

«آهاه! آهاه! لا تتركيني وحدي في هذه الأدغال الموحشة، لقد زاد الضباب كثافة وانمحت أمامي الطريق!...

ويستمر به السير، ويطول، فإذا بسمة الأمل التي ألقتها في نفسه أشعة الفجر، وزودته بشحنة من طاقة ليواصل سيره تنضب في المساء فتصير الغاية المستهدفة في باكر يومه ليلا ينتظره. ويطوي ليله بين أجفانه ليحلم بفجر جديد وبأمل جديد وبغاية جديدة فإذا جاء الصباح سار لينتهي إلى الليل من جديد!

كانت حياته حركة، فخيل إليه أن حركته تقدم، فهل كان يتقدم أم كان يتأخر؟ إن المفاوز التي قطعها والادغال التي جابها والأيام التي قضاها لم تترك غير ذكريات شاحبة متشابهة: نور وراءه ظلام.

وظلام وراءه نور. وما بينهما أتعاب ودموع.

وذات يوم، كان يسير في متاهة من رمال. وكان ينادي نداءه المعتاد، ويتألم تألمه المألوف وقد هبت ريح عاصفة فخيل إليه أنها تحاوره، وتوهم أنه قد سمعها تقول له آمرة:

— اسكت يا هذا، لقد حير سكوني نداؤك!

فأجاب في شبه انهزام:

— «لا أستطيع السكوت، إني أتألم!

فردت عليه:

- «لو تألمت لما تكلمت»
فقال متشكياً:
- «لقد أعياني السير»
فقالت له ساخرة:
- إنك مازلت في أول الطريق!
فأشار إلى ما تحمله من أتعاب قائلا:
- لقد سرت حثيثاً منذ الفجر وأخشى أن يحين الليل.
فسألته قائلة:
- أتخاف من الليل؟
فأجاب في تردد:
- أخاف... أخاف أن يصير غايتي بدل الفجر!
وشاءت أن تستمر في السخرية به فقالت سائلة:
- إذن أنت تحب الفجر! ترى لماذا تحب الفجر وأنت إنسان لا تشبه الشجر ولا الزهر؟
فأجاب:
- لأسير، لأصل قبل الليل...
فقالت له الريح متهكمة:
- لن تجد لاتقاء الليل سبيلا. لكن قل لي: إلى أين أنت ذاهب وعلى من تنادي؟
فكر لحظات ثم قال:
- على خطيبتي.
- أين هي؟
- لست أدري.

ــ لست تدري! عجباً! تنادي على خطيبتك، وذاهب إليها، ولست تدري أين هي!

ــ تلك هي الحقيقة. قضي علي أن أجري وراءها...

ــ وهي واقفة أم تجري؟

ــ تجري.

ــ إنك لن تصل إذن.

ــ لا، لا تقولي هذا... يجب أن أصل، يجب ذلك مهما كان الأمر. إنني لا أستطيع العودة بدونها. أفهمت؟ إن المدينة كلها تنتظر رجوعنا.

ــ قل، هل تحبها ؟

ــ كيف لا أحبها وأنا قد جف حلقي من النداء وقدماي تنفز من السير دماً!

ــ متى بدأ حبك لها؟

ــ قبل أن يولد الحب!

ــ قبل أن يولد الحب! عجباً! عجباً لك أيها الإنسان : أحبَّها قبل أن يولد الحب ...

وتنطلق ضحكات الريح عالية فيضيق ذرعاً بذلك ويسألها في تذمر:

ــ ما يضحكك؟

ــ كذبك.

ــ لم أكذب.

ــ ألست إنساناً؟

— أنا إنسان، وأنت...

ويحاول أن يسألها من هي؟ وتختلط في نفسه الأوهام والخيالات. لكن الحقيقة التي يبحث عنها كان يحسها إحساساً، لايتصورها تصورا واضحاً، لذلك لم يجد بدا من حياة الوهم.

واستأنف سؤاله قائـلا:

— وأنت، ألم تقولي إنك الريح؟

— أنا الريح.

— ومتى كانت الريح تتكلم؟

— منذ أن فقدت الكلمة وزنها في فم الإنسان!

قالت الريح ذلك وقد أخذ عنفها يقل، فتعجب الإنسان مما سمع وقال هامساً:

— عجباً، الريح تتكلم ! قولي أيتها الريح، لقد عرفناك عنيفة وها أنذا أراك تلينين وترقين.

— تعلمت العنف من قساوة الجبال.

وأحس الإنسان أن الريح تعاني شيئاً مما يعاني. وأن انطلاقها إلى لا غاية يشبه انطلاقه، والحتمية التي تطوقها مثل حتمية العذاب الذي هو فيه ولم يجد منه مفرا ولا له ردا وقال في هدوء وحنان:

— إن صوتك يصل إلى أذني عذباً كالنغم، جميلا كالنور، حالما كالماء.

فأبانت الريح بنبرات تدل على حسرة متمكنة:

— « النغم نفحة من روحي ، والنور صديقي ، أما حلم الماء فتلك أغنيتي أنا . »

و بدا للإنسـان ان يعرف شيئا عن حياة الريح فسألهـا :

– « قولي أيتهـا الريح ، هل عرفت لذة الحب ؟ »

– ومرارته .

– وعرفت سعـادتـه ؟

– وشقـاءه .

– صفيـه لي ارجـوك .

– في أغاني بالجـداول لمحـة من سـروره ، وفي نـواحي بالغـابات والجبـال أهـة من أحـزانه . »

– من أحببت أيتهـا الريح ؟ اني أجد لحديثك لذة لا تنتهـي .

– أحببت جبلا .

– وهل أحبك الجبـل ؟

– لست أدري .

– تلك هي المأسـاة ، وأنـا أيضـاً لست أدري ان كانت خطيبتي تحبني .

ورقت الريح لحال هـذا الانسـان المسكين وسـألتـه أن يحدثهـا عن خطيبتـه ، لعـل الحديث عنهـا ينسيه شيئاً من آلامه في سبيلهـا ، فقـال :

– « خطيبتي جميلـة كالشمس ، لطيفـة كالنـور ، عذبـة كالخلـود أو هي الخلـود ، ولكنهـا متجبـرة كالأبد . . .

– مسكين أنت أيهـا الانسـان !

– انني أحبهـا ، أحبهـا حبـاً مطلقاً قدسيـاً ، حباً أبلغ من الألم وأقوى من الموت ، وألذ من الحيـاة ، أو هـو الحياة . حبـاً هـو كل الكـل ، ، وكمـال الكمـال . حباً هـو نـور النـور وقداسة

القداسة ، وهو وجود الوجود . أعينيني أيتها الريح ، لقد عرفت الحب مثلي فكلانا يتألم، واخوة الألم تفوق اخوة الدم .

– انها بعيدة خطيبتك . عليك بالصبر والسير الحثيث .

– أعينيني أيتها الريح ، ارجوك !

– عندما أبكي سأذكر حبك . . .

– أيتها الريح لقد برح بي ا لألم .

– لابد من الألم.

– أخشى ان تطول الطريق...

– لابد من السير ولو طالت.

– أعينيني ، أقسمت بحبك.

– سأبث حبك وأحدث به الأكوان، وأقصه على الجداول والشجر.

– أعينيني أيتها الريح ، أقسمت لك بوفائك للجبال القاسية ، وبعطفك على الجداول الظامئة وبحنانك على الشواطىء الحالمة ، وبما بثثت من حياة في قفر موات. أعينيني أقسمت لك بأغاني حبك التي ترددها أبد الآبدين ألسنة الشجر.

– سأروي الى خطيبتك قصة حبك.

– قولي لها أيتها الريح : انني أحبك.

– سأروي قصتك للجبال القاسية حتى تذوب ندما ، وأرويها للصحاري اليابسة حتى تتفجر دموعا ، سأبث في كل غصن نغما من أحزانك ، وفي كل ساقية لحناً من آلامك، وفي كل شعاع وهجا من حبك.

– ان مت في الطريق ، بلغيها حبي أيتها الريح ! وداعاً أيتها الريح !

– وداعا أيها الانسان ، وصبرا جميلا !

وسار ذلك الانسان المسكين في طريقه بين ماض ومستقبل مجهولين، سار في حاضر صيرته الصورة الوهمية الملاصقة لخياله حاضرا مستمرا، سار وحيدا في وحدته ، متعرضا لنهشات الجوع ولسعات البرد ، متعثرا في ظلام كثيف ، عرضة لما وجد من أخطار وأهوال على حفاف طريقه. وكان يحس ان كل خطوة يخطوها تزيده بعدا عن مبتغاه، ولكنه كان مضطرا للسير ، فهولا يملك الا ان يتقدم ولو في طريق دائري ، ولو في حاضر أبدي :

– مللت من السير في هذا الظلام. أيتها النجوم حنانيك ، أنيري طريقي بما منحت من نور ، ان رجلي لم تعد تطأ الارض ، انما هي الآن تتعثر في نفسي. لقد صارت نفسي هي الطريق. أيتها الطريق التي أسير فيها ولا اراها حدثي من بعدي انني تألمت فيك وتعذبت ، وتعرضت لكل ما يطوقك من أهوال وأخطار. حدثي من بعدى انني عانيت الكثير... آه ! هذه آمالي تسير ورائي وقد كانت ذات يوم تنير سبيلي أمامي. كم شكوت للنجوم ولكن النجوم لم تأبه لحالي. كم شكوت لما مررت به من أكوان وحدتي وغربتي ووهني ولكن الاكوان لم ترحمني.

أيتها الطريق ، حدثي خطيبتي . . . حدثيها ان مرت من هنا انني أحببتها وان حبها لم يكن الا عذابا . . .

وغاص الرجل المسكين في الظلام حتى امتلأت كل

شـرايينـه وذرات جسمـه بالظـلام ، وفقد الـوعي .

كان ممتدا على طـوله في الظـلام كالنـائم أو كالميت . وفي أعمـاق نفسـه في قـرار بعيد جدا في أقاصي نفسـه ، كانت هنـاك ذرة من يقظـة تتخبط مرة وتهمـد أخـرى . ولبثت كذلك زمـانا حتى أعادت الى جـزء كبير من كيانـه نـوعا من الـوعي، واستمـر كذلك أزمنـة .

ـ وذات يـوم أفاق وكانت يقظتـه صيحـة مثل الصيحـة الاولى:

ـ أهـاه أهـاه ! انتظري هناك ، انتظريني ريثمـا أصـل . لا تتـركيني أجري وراءك عبثـاً . أهـاه ! أهـاه ! . . .

وأخذ في سيره وفي نداءاتـه فإذا بالأصـداء تعيـد اليه أصواتـا عاليـة ضـاحكـة ! . . .

ـ مـا يضحككن ؟ أجبن عن سـؤالي مـا يضحككن ومن أنتن ؟ أجبن من أنتن ؟

فتـرد عليه الاصداء قـائلـة في وضوح :

ـ نحن الحيـاة !

ـ لا ، لستن الحيـاة ، ان الحيـاة واحدة هي التي تسكـن عيني خطيبتي . أنتن زيف !

ـ نحن الحياة ! انك تجـري وراء وهم وتنـادي على حلـم !

ـ أجـري وراء خطيبتي .

ـ وأين هي خطيبتك ؟

ـ أمـا مي ، انهـا أمـا مي . . وهذه هي الطـريق !

ـ انك تسير عبثـاً .

– انني لا أسير عبثاً ، ان خطيبتي سلكت هذه الطريق .
– من اين انتما ؟
– من المدينة.
– ولماذا خرجتما ؟
– اردنا ان نتزوج فحكم علينا أن نعاني تجربة .
– من حكم عليكما ؟
– لست ادري . . المدينة .
– ولماذا حكم عليكما بهذه التجربة الشاقة ؟
– لاختبار صلاحيتنا للزواج .
– لا ، انك كاذب . خرجت لتقترف الجرائم باسم البحث عن خطيبتك ! لن ندعك تسير. سنلاحقك أيان اتجهت!
– ماذا جنيت عليكن ؟ ان اصواتكن الخانقة أعادت ذلك الضباب الكثيف فها أنذا أكاد لا أميز مواقع قدمي !
– ان جرائمك تحول بينك وبين الطريق .
– لست مجرما . انني بريء
– هذه قتلاك ، أفلا تراها ؟
– لم أقتل احدا انني بريء !
– وهذه ذنوبك أفلا تبصرها ؟
– لم اقترف اثما ، انني لبريء من كل ما تذكرن ! بريء ، ولست مسؤولا عن جرائم غيري .
– ألست انسانا ؟
– انسان ، ولكنني بالرغم من ذلك فانا بريء !
– ها ، أنت ككل الآخرين ، تبرىء نفسك ولو بتجريم

الآخـرين !

ـ أقسـم لكن اني بـريء !

ـ أمتـأكد انت من بـراءتك ؟ أمتأكد من ان وعيك كان دائمـا يقظـاً ؟

ـ لقد سهوت فترة من شدة العياء وتكاثف الظـلام ولكنني لم أقتـل احدا ولم ارتكب اثمـا أذكـره .

تعـالى ضحك الاصداء حتى كاد الـرجـل المسكين يجـن، وتكـاثف الضبـاب. حتى صـار لا يـرى شيئـاً امـامـه ولا حوله. وسـار بالـرغم من ذلك متعثـرا لاهثـاً باكيـا ، وانتهـى بـه سيره الى السقـوط في ظـلام أشد كثـافـة وأبلغ صلابـة !

* * *

وذات يـوم قـامت ريح عـاصفـة فازاحت مـا كان يطـوقـه من ظـلام وضبـاب ففتح عينيـه فاذا هـو يـرى من بعيد في الافق أسـوار مدينـة فامتلكتـه الدهشـة والاستغـراب وقـال متمتمـاً :

هل هذه هي المدينـة التي خـرجت منهـا ، أم اخـرى انـا ذاهب اليهـا

هـل قضيت أيـامي في الابتعـاد عن المدينـة ام في الاقتـراب منهـا ؟

هـل خطيئتـي خـرجت من هذه المدينـة ام جـاءت اليهـا ؟

هـل . . . ام كـل هـذا سـراب وضبـاب ؟

وأتعـابي اذن ؟ وأيـامي اذن ؟ كلهـا كانت في سبيل مـاذا ؟

مـاذا أعمـل الآن ؟ أأسير ، أم أبقى هكـذا ؟ أسير الى أين ؟ وأبقى لمـاذا ؟

لا ، لن أبقى هكـذا ، يجب ان أسير . . ولو كانت المدينـة هي المدينـة . . أسير ، قد يكـون كل ما شـاهدت جلمـا في سبيـل حلـم !

# الفهرس

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
مديرية الانتاج
مطبعة احمد زبانة ـ الجزائر



**الكاتب وقصص أخرى**

**أو عبد الحميد بن هدوقه «والسهل الممتنع»**

مهما تكن الصفات التي يتحلى بها الانسان ومهما تكن الظروف التي يعيش فيها فصورته لا يمكن أن تظهر جليا الا في عمله وخاصة في ذلك العمل الذي يقوم به باحثا عن مجتمع افضل.

هذا وإذا عرفنا أن الانسان الذي يعتني به الكاتب في هذه القصص هو الانسان العربي المعاصر فلا مناص من أن تتبادر الى ذهننا المشاكل والقضايا التي يعيشها نعشها نحن، فندخل عالمه، بل عالمنا، أي العالم الذي استطاع عبد الحميد بن هدوقه أن يجسده أمامنا ببراعة وبأسلوب وصل به إلى أنصع صورة من الفن: هذه الصورة التي عبر عنها القدماء «بالسهل الممتنع.»



السعر فى الجزائر : 13 د.ج